

روايات الهلال

الليل.. الرحم

محمد روميش

REWAYATAL — HILAL
NO . 456 DECEMBER 1986

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

Amly



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) في جمهورية مصر العربية تسعه جنيهات بالبريد العادي وفي بلاد اتحادي البريد العربي والأفريقي والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوي وفي سائر أنحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوي .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج . م . ع نقدا أو بحالة بريدية غير حكومية وفي الخارج بتشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . وتصاف رسم البريد المسجل على الاعسارات الموجبة أعلاه عند الطلب .

اسعار البيع في البلاد العربية للأعداد العادي من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارئ في مصر سوريا ١٨٠٠ ق . س ، لبنان ١٨ ليرة ، الأردن ٥٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ رياضات ، تونس ١٦٠٠ مليم ، الخليج ١٢٠٠ فلس ، الصومال ١٢٠٠ بني ، لا جوس ١٢٠٠ بني ، عدن ١٤٤ سنتا ، لندن ١٥٠ سنتا ، أثينا ٢٠٠ دراخمه ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، السودان ٢٥٠ ق . سوداني ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، اليمن الشمالية ١٥ ريالا ، ايطاليا ٣٠٠ ليرة

العدد ٤٥٦ - ديسمبر ١٩٨٦
ربيع الثاني - ١٤٠٧ هـ

NO. 456 DEC. 1986

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود فاسم

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
سمحة حسين

اللَّهُمَّ
رَبِّنَا
رَبِّ الْعَالَمِينَ

سُلَيْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ

تألِيف

محمد روميš



دار الملائ

النشيد من الأفق الغربي

.. ثم توارى الجحيم ..
.. كانت تصبه الشمس ، فتصنع العقل .. حقل الوسية الواسع ..
فرناكبيرا ، يشوى مابه من ناس ..
ومن بعيد .. من حيث تلتقي السماء بعقل القطن .. أقبلت نسمات .. تجفف العرق .. تعانق رعوس الشجيرات .. تصوّج اللوزات المفتتحة بالونها الابيض الشاهي ، فيبدو القطن بحرا .. كبيرا صاحبا .. يفطى الربد صفة مائه ..
.. وابتسمت « ست أبوها » وهي تتحفف من الخرق التي تلفها فوق رأسها وحول رقبتها عازلة أشعة الشمس من ان تحيل وجهها النفاخي البشوش ، قطعة فحم ..
.. وأطالت ابراهيم ثامل ست أبوها ، واسقط في قلبه ، ملاحقة البنية .. ووقف بعينيه على خديها المتوردين ..
- ست ابوها مشن للفيط يا اولاد .. رآها بكرت في داره ..
كتستها وجزءا من الحرارة .. ملات البلاص من الترعة ورجعت في يدها حزمة حب بحر .. اخضر .. معطر .. تقربه الى انفه ..
- قوم يا ابراهيم السمس علو الدنيا ..
- ياشيخه سيبيني شوبه ..
- وحياة سيدى ذى النون م اسيبك ..
واعتبرضت ساق ابراهيم شجرتا قطن تشابكت فروعهما .. شق طريقه وسط الاغصان التشابكة .. احس اللسع ونقط دم صغيره ..
قانية .. متجمعة على ركبته .. مسح الدم بقطعة قطن دسها خلسة في عيه .. لتأخذ طريقها الى بوركشیر .. وسارعت ست أبوها تمد يدها بمنديل اعتادت ان تلف به صابونتها ام ربيحة .. شسم ابراهيم المندبى عميقا ، ورده .. النقط الحنون من عيني ست أبوها .. رفع قامته ..
عندى .. من الورد
بستان .. ورد
بيطروح .. ورد

وخدم .. الورد
بسقى الورد
ماء الورد

سبعين سنة

حارس جناب الورد

.. قفر نون وردي باسم .. صبغ وجه ست ابوها بخجل اليف ..
.. ارتعشت اصابعها الماهرة ، وهى تترعقطن من لوزاته ..
وبصوت خفيض ..

- مش قلت لك يا ابراهيم ..

- قلت ايه ياست ابوها ..

- قلت لك متغنىش الموال ده ..

- ليه بانت ..

- احسن الناس .. بتعرف ..

- تعرف ايه ..

- م اعرفش ..

.. وانت ابراهيم المناسب الذى ينتظرها من الفجر الباكر ..

- صحيح ياست ابوها ..

- صحيح ايه ..

- الواد عواد .. راح لامك .. ليلة امبارح .. عشان يخطبك
منها ..

.. انتسمت ست ابوها .. بعينيها الالنتين اطبقت على وجهه
ابراهيم ، في لقطة كبيرة .. وجه اسرم مستطيل .. جبهة مفرودة ،
عالية .. انف طويل .. شعرات رفيعة صفراء .. لمعت تحت
شمس العصاوى فوق شفته العليا .. ورائحتها شاربا مبروما .. اكبر
من شارب زيدان الخولي ..

- اقول لك الجد يا ابراهيم ..

- ايه .. قولى الجد ..

- هو .. قابل امي ليلة امبارح .. قالت له .. صحيح يا عواد
يابانى .. انت عندك نص قدان ارض .. وعندك بقرتك فيها شوية
البن .. لكن مخبيش عليك .. العيال بيحبو بعض .. وانت عارف
نتى مقطوعة من سجرا .. عاوزه اجوزها لواحد .. بيحها ..
وتحبها .. عشان لما اموت .. اموت مرثاحه ..
- مقطوعة من سجرا ازاي ياست ابوها .. دا كلام .. عيب ..

آن، وتبىء لها التراب الى تدوسى عليه .. مطرح مكنتى ..
.. ارتعش جسد الفتاة .. كاد يطلبها الدمع ..
.. م انى عارفه كده ياابراهيم ..

.. لم تقو الشتمة التي جاءت من الخلف .. من زيدان الصعيدي،
أن تشوّه بمحنة الفرحة او تقلل من رغبة الصغيرين في أن يلقي كل
منهما رأسه على صدر الآخر .. فوق قبة الفرن ..
- يعنى ياد .. يامفهوم .. مفيش غيرك انت والبت الصفره
دى .. طول النهار ودوده ..

.. غطى العرق البارد جلد الفتى .. ضرب قلبه بشدة .. داخل
صدره وهبط .. شاق وجه الدنيا المتمدد بلا نهاية .. الخسول
زيدان .. ثور هائج .. لسانه اطول من الفرقة واوسع من نعل
البلغة القديمة .. يشتم ويضرب بالشوم .. وبالكفت .. وبالرجل
.. وله ضهر يحميه .. « ملعون ابو الوسية .. من طاطا .. لسلام
عليكو .. »

- انت ياعم زيدان .. مش عايز الخطين يجمعوا .. ويسبقو
الخطوط ..

- متريتش على يا كلب .. على « الحال من دراعي » م تروح
سليم ..

.. ساد غيظ الوسية صمت جنائى .. تخدشه خرفة
الاصابع .. تلتف حول اللوزات والسيقان تتخطى فروع الشجيرات
المجموعة .. ورجال بلمون القطن من الانفار الجامعين .. الاكياس
ترفع وترتبط في طريقها الى مخزن الوسية .. صوت زيدان ..
يتنقل وراء الانفار .. هائجا .. يشتم .. يهدد بالضرب .. وقطنم
اليومية .. ويقسم بالطلاق من ذراعه اليمين بأنه لن يساع للانفار
بالعودة الى دورهم الا بعد غطة « الشمش » ..

- اصل آنى عارفكم .. فلاحين .. م جوشى الا بالكرجاج ..
.. تنفت ابراهيم حوله .. صف طويل من الانفار .. رجال البلد
ونسوانها دعيالها كلهم يرتعدون من اسم الوسية .. وبخسافون
زيدان .. يتحددون عن طول زيدان .. وعرضه .. وكف زيدان « يوم
م ضرب احمد فقلبه على الارض » .. وعلى بن زيد خرق طبلة اذنه
لأنه تجرا ومشاشي من قدامه يوم رى القطر ..

.. تنفس ابراهيم كمدا .. حط على قلبه حمل ثقيل كالرصاص
مسار فى دمه .. امتصته كل خلابا جسده الشاب .. تمزقت

أمامة الحيرة التي وكتته يوما .. لانه رأى بعينيه أباه يقبل بد حضره
العمدة .. والعمدة مخصوص على المصطبة .. الشمس تنزف سيور
الدم في الجمة الفربية .. الصمت الثقيل .. يحط على الانفار ..
الانفار يقسمون بينهم وبين أنفسهم انهم لن يعملوا في غيط الوسية
بعد اليوم .. لكن كلاما منهم يعلم يقينا انه لن يوف بقسمه ..
فجأة تصيح فاطمة .. تلقى مابعها من قطن مجموع ..
ـ مبروك .. مبروك .. يا خنابا .. يا حبيبى ..
.. ينكسر الصمت الذي فرضه زيدان :

فمبروك مولود فاطمة الصغير الذي تنيمه بجوار عود تيل كبير ..
جرجره ذئب جائع .. وانطلق الانفار .. ينهون يوما من حياتهم ..
ويطاردون ذئبا بين أنيابه صغير منهم ..

(٢)

.. الدق المتواصل على الباب يصل الى اذني ست ابوها .. دفوفا
لتقدمها هي وابراهيم الى بيت العدل .. الدق يرتفع وهي تسرع
الخطو مع العريض الى القاعة التي فرشوا فيها حصیرتها الجديدة
وفى ركن القاعة الصندوق الخشبي المزركش احمر واخضر وأصفر
.. بجوار «البوريه» .. لمحت حلقة الاتفاق .. احست بالخجل ..
وابراهيم يرارد باب القاعة ويسلم الرجال والنساء والاطفال المحتاجة
شاش الفلاح الابيض تنفسه بقع الدم .. ونسوة يغنين .. «شرفتنا
يا بنتنا يازينة ..»

«قولوا لايرها ان كان جuman يتعشى ..» ترتفع القلة الجديدة ..
وقبيل ان يصل الماء الى فمهما تهب مستيقظة متضايقه ظلمانة .. وتسمم
الدق على باب دارهم .. وكان ابراهيم بالباب ..

ـ خير يا ابراهيم .. خير ..

ـ مش يابن ياست ابوها ..

وبها رغبة عميقة ان تقص عليه الرؤيا ..

ـ ياخويا .. يهمك من زيدان .. ولا من بتوع الوسية كلهم ..

ـ مش من زيدان ياست ابوها .. الانجليز مع العساكر المجانة
والفقر .. محاوطين البلد بحالها .. وبيلموا كل الرجال ..

ـ تخشن .. اخبيك فى قاعة الفرن ..

ـ يادى الله ياست ابوها .. استخبي فى قاعة الفرن .. وبعدن

يجر جرونى .. وتبقى قضيحة فى البلد ..

ـ ياخويا يوم .. والا اثنين .. معلمتش ..

— مقىش قايدة بست أبوها .. وآتني بصلى الفجر .. سمعت انهم جايسينها من فوق .. م المنصورة بلد .. بلد .. عزبة .. عزبة بدوا الرجاله وشحونهم ع المنصورة .. دول كمان بيأخذوا الجمال والخيل والحمير .. حتى الفراخ والدره .. والشعر ..

— يادى الغراب ياولاد .. ليه ده .. هي المنصورة اتخرست .. منصورة ايه ياعبله .. انا سمعت انهم بيشحونوا دا كله على مصر .. وبعد كده محدث عارف ..

— يادى الخيبة .. ومين اللي هيستغل فى ارض الوسيه .. وشد عساكر المجانة ابراهيم .. وانتشروا فى باقى غرف الدار الواسعة بارشاد شيخ البلد .. للتفتيش وخرجو وليس بيدهم سواه .. وثار رئيس الفرقة احمر الوجه .. يتكلم بلکنة الخواجات .. تجار القطن .. متسائلا عن الرجاله .. والجمال .. والبقر .. والخيل والحمير .. والحبوب .. ورد شيخ البلد بلسانه ويده وجسمه .. نيس بالدار سوى امراة عجوز وابنتها .. والبنت تعمل ناليومية .. فى ارض الوسيه .. كل يوم برزقه .. لكن احمر الوجه .. طلب ان تبرع العجوز لمنظمة الصليب الاحمر .. لم تفهم ام سنت أبوها .. سوى انهم حملوا مع ابراهيم .. عريس انتها .. اجرة سنت أبوها جمعة بحالها .. واربع فرخات بياضة .. وبطه سوده ..

.. فى العصر .. ارتفع كالعادة .. دخان الكوانين .. يحمل رائحة الروث الحاذ المحترق ورائحة الملوخية والبامية والرجلة والحميض .. وتراءى للرجال المشحونين فى العربات اللورى .. ان دخان الطبيخ .. حريق مكتوم .. يتصاعد لاعلى .. وتحملهم العربات ٢، كل لمصير .. لا يدرىه ..

(٣)

.. فى غبطة القطن .. أمام الخولى زيدان .. عزف الانفار .. بلدى يابلدى .. السلطة خدت ولدى .. بلدى .. يابلدى .. انا يادى ارجع بلدى ..

وينتهى جمی القطن .. وقطع الحطب .. وحرث الارض .. وبذر الحنطة .. ويدخل على قريتنا فصل شتاء جارى ..

(٤)

.. هذه السنة .. واجهت سنت أبوها .. شتاء قريدا .. من حلول الليل .. وأندوان الله وحده .. يهل ابراهيم على كتنه لبسته

القصب .. وفي جيبيه الفول السوداني ، وخرطة العجوة السيوى .
- سالخير يامه امباركه .. ازيك ..
وينحنى على ام ست ابوها .. يصافحها ويقبل يدها .. سمراء ..
جافة .. رقيقة الجلد .. معروقتها .. والى حوارها يتخل مقدمه ..
تمسح بكتفها على راسه .. تطبطب على كتفه :
- ازيك يا ابراهيم .. ازيك يا ولدى .. قسمى يابت ولدى
الطاجن ..

.. الصغير يستعرض فتوته فى كسر اعواد القصب .. وتستفرق
ست ابوها فى اشعال النار .. ويتوسطهم الطاجن .. وتمتد الاصابع
تستدفىء .. ويملا الدخان قاعة الفرن من الارض للسقف ..
وترثشف الافواه الصفيرة العصير البارد .. ومن جيب الجلاية
يخرج ابراهيم لفة العجوة السيوى .. وفيما يشبه السر يدساها فى
يد امه .. ام ست ابوها .. خالتى امباركه ..

- وخدى كمان يامه .. حنة الهريرة .. دى .. اصل انى عارف
منانك مش حمل القصب ..

.. وعلى ضوء اللمة ام فتيلة .. المختنقة بين سحابات الدخان
.. تبدأ الام فى .. الحكى بعد تمنع منها وحلفان من ابراهيم ..
- يا ابراهيم .. يابنى .. حكايتنا .. عواجيزي .. قولوا انتوا
حكاية من حكايات الأيام دى ..

.. ويعزف ابراهيم ان فى يده ورقة رابحة ..
- وحياة سيدنا النبي يامه تحكى حكاية ..

.. تصهل ست ابوها ضاحكة .. هي تعرف مشاهد السهرة
مشهودا .. مشهدا وذاك لا يمنعها من الضحك .. بل ان تتحقق
ما تتراءعه .. على النحو الذى توقعته تماما .. يذفها .. اكثرا ..
الى الافتران فى الضحك .. وتبدا الام من حكاية ست الحسن والجمال
مع ابن السلطان والشاطر حسن .. والفتاة عنيبة التى خطفها الفون
وعاشت جارية فى قصر معزول عال ..
.. وتبدأ الام .. دائمها ..

- صلتوا .. بنا .. على سيدنا النبي ..
وتلتقي عيون .. ابراهيم وست ابوها .. وتندرج الشفاه ..
ويتأخر الجواب عن الام .. تتفاوض وتقسم بحياة سيدى ذى
النون .. انها لن تحكى هذه الليلة .. ويسرع الصغير ان ..
- اللهم صلى على سيدنا النبي ..

وتعاود الام . . .
- كمان زيدوا .. النبي .. صله .. وحياة سيدى ذى الثون ان
م زدتوا .. النبي صله .. مان فتحه جنگ .. أصل جيل الابام
دى كده ..

وتصمت الام . قليلا .. ثم تبدا بتؤده واحترام ..
- كان .. ياما كان .. مايحلى الكلام الا بذكر النبي عليه السلام ..
.. كان .. فيه ..
.. ويحدث كثيرا ان يغلب الام .. النعاس .. فتغمض عينيها
نصف اغماض .. وينخفض صوتها مع قليل من البحة ..
- كمان زيدو النبي صله .. كان فيه .. يا اولاد .. كان النوم
سلطان ..

.. وتصحو الام على صوت تهقة نشوانه ..
- الله يجازيكو .. يا اولاد ويجازى شيطانكم .. سمعنا ياواذ
يابراهيم موالي .. بس يكون مدح في سيدك النبي .. مش من موابل
الايم دى ..
.. وكله خجل حقيقي .. يتمنع ابراهيم .. وتلخ ست ابوها هذه
المرة .. ويتنحنح ابراهيم .. ويجرع كوز منه .. ويغمض عينيه
قليلا ..

عندى من الورد
بستان ورد ..
لكن فى هذه السنة .. واجهت ست ابوها .. شتاء فريدا ..
يدخل الليل .. وهى من المقرب معددة الى جانب خالتى امباركه ..
تنقلب على الجانب اليمين مرة .. وعلى الجانب الشمال مرة ..
وتهب فزعة من حلم القاها فى بشر عميقة .. وتعود تنقلب على الجانبين
وتحك تحت اطها .. وتتسمع صوت الشیخ حلموشى يؤذن الفجر
فلا تسمعه .. وتهز امها ..
- احنالنته يامه ..

- ياست ابوها نامي .. لسه كتير عن الفجر ..
وتنام ست ابوها .. ويعتارك ابراهيم مع زيدان الخولي ..
ويتشق الدم من جبهة ابراهيم وتأخذه على صدرها تجفف الدم
وتربط جبهته بالمنديل ابو ريحه .. وتفرغ وتقنعه ان يبقى المنديل
حتى لا يصفى العروج دمه .. وي بعض فار كبر الاصبع الوسطى من
يدها اليسرى وستيقظ .. وتنقلب على الجانب الثاني .. وتمسوك

مشاهد الحلم الكبير .. مرة تركب هودجا ويتهاوي بها الجمل حول
البلد .. مرة النساء والفتيات يسبقنها وهي تخطو الى جوار
ابراهيم حول اللند في طريقهما الى بيت العدل .. القاعة .. الخصيرة
الجديدة المقتوشة مرة .. وساده مرة .. وحلة الاتفاق داخلها ذكر
البط فوق البويره .. وابراهيم يخلع جلابيته الدبلان البيضة ..
دكة اللباس الحمراء المجدولة من خيوط الصوف تتدلى بين فخديه ..
مرة تجلس القرفصاء على الخصيرة بجوار المخدة .. ومرات هاربة
منه في ركن القاعة .. ودائما يوارب ابراهيم الباب ويدفع بالشاشة
الابيض المنقط بالدم الى الناس المنتظرة على الباب .. وتصحو قبل
ان يبلغ ماء القلة شفتيها .. وتتقلب على الجانب الثاني .. تتدكر
النسوان الالائى حدثتها عن ليلة الدخلة ..

ـ زى قرصة الدبور ..

ـ يابت ياست ابوها .. اخذ الوش زى قرصة الدبور ..
ـ يا شيخة حرام عليك .. ه .. تخوفى البت .. والنبي ياست
ابوها .. دى .. زى قرصة البرغوت ..
ـ يابت ماتخافيش .. لا برغوت ولا دبور .. ولا ه .. تبقى
حاسه بحاجه .. ومن داق عمل الخلايا يصبر لقرص النحل ..
ـ اقول لكم .. ان كانت ست ابوها بتحب ابراهيم يبقى زى
قرصه البرغوت .. وان كانت بتكرهه .. يبقى زى قرصة الدبور ..
ـ ان كان كده .. ست ابوها مش .. ه .. تحس بحاجة ..
ـ يادى الكسوف .. دا انتو نسوان .. بجحة صحيح وحياة
سيدى ذى النون ..
ـ آل يعني آل .. يختى اللي يخاف من العرسة ما يربيش
فراخ ..

.. ويضحك ابراهيم .. وتفنى النساء
شرفتينا بانتتنا يازينه ..

.. وحدث ان كانت تزف الى ابراهيم .. وهتفت لنفسها وهي
نائمة .. يابت ده حلم .. ياست ابوها .. انت بتحلمى .. وتصحو
فارغة تماما .. شيء قاس يمسك بصدرها من الداخل .. لا يسمح
لها حتى بان تعرن او تبكي .. تصحو مخنوقة .. تنهي كأنها قادمة
من مشوار طويل .. تود لو تبكي .. لو تطلق دموعها تفرق الدنيا
بحالها ..

ـ امه .. لسه اد ايه عن الفجر ..

- خلاص يابنتى .. الشيف حلموشي ه .. يسبح كمان شويه ..
- يمكن خدته نومة ..
- استغفر الله العظيم .. يا بنتى دا .. الملائكة بتصحىه عشان يدن الفجر ..
- الليلة دى مالهاش آخر ..
- استغفر الله العظيم .. يابنتى مادايم الا وجهاه ..
- لكن ياالمه .. هو الواحدة تحلم انها بتحلم ..
- اللهم أخربك ياشيطان .. ه .. افتى يابنتى فى اللي ماليش فيه .. صباح رباج نسال الشيف حلموشي ..
- اووه ..
- ماتنفخيش ياست ابوها .. رزقك ع اللي خلقك ..

- ٥ -

... بعيدا عن سوق الثلاثاء فى المنصورة .. ومن سوق الخميس فى السنبلاوين .. حتى عن سوق الاربعاء فى طنطا .. آخر ما يصل اليه النابعون والرحلة الكبار من رجال قرية تلباية ..

.. بعيدا عن ارض مصر .. كانت نجمتان تهتان ببطء فى الجهة الشرقية .. وتباهير ضوء كاب - تتباهى من بعيد .. وانطلق دوى صفاراة كثيب .. افزع الرجال النائم او المهدودة .. تحسن كل منهم قاسه ومقطفه .. انتزعوا انفسهم من رقدة ابدية .. طوابير يتحلق كل خمسين حول ريس - يوزع عليهم زاد يوم .. وتفرقع السياط فى الهواء .. وينطلق الرجال الى الجبل .. جبل عال ، أعلى من الخلة مرة .. مرتين .. قل ثلاثة .. تضرب الفتوس بطن الجبل .. الاكتاف العريانة تحمل المقاطف تفرغها بعيدا .. المقاطف الصغيرة تصنع تللا فوق الجبل وتخلى ضربات الفتوس سكة مشقوقة فى بطن المستحيل ..

.. فى المقدمة .. وفي أعلى الجبل .. وقف وجه احمر آخر .. كالذى خطف ابراهيم من فوق قبة الفرن ، يرسم ببال رائق عرض السكة المشقوقة .. ويتقدم « ريسه » كبار .. يفسرون ويشرحون الى « ريسه » اصغر .. كلمات تنتقل من لسان الى لسان حتى تصل الى الفعلة فتوسها تضرب .. ومقاطف تحمل .. وتللا صفرية تنشأ .. وتحجو .. وتكبر على جانب السكة المشقوقة .. الرجال

الفعلة .. الشفيلة .. موجات زاخرة .. كالعاصفة في بحر بلا
نهاية او ان آخره من الجهة الاخرى التي وقف عندها المهندس
الانجليزي يرسم عرض السكة المطلوبة لتمتد فوقها خشبات ترمي
عليها قضبان حديدية .. يقيسها انجليزي آخر .. ويشير لن يربطون
السامي القلاووظ الكبيرة .. وتمتد سكة حديدية تربط جنوب
الشام بشماله .. وينقل الانجليز جيشهم مارا وسط جبل لا تبلغ
اعيئهم ماء ..

الذى يشق الجبل .. لا يعرف ماذا يدور .. فالفاس ترفع وتهوى
والقطف يلقى فارغا وتحمل طافحا .. ورافع الفاس وحامل المقطف
وربما ريسهم الصغير نفسه .. لا يرون اكثر مما تحت اقدامهم ..
الجبل ممتد .. فيما يراه .. بلا نهاية .. السوط في يد الرئيس
يدو اثقل من الجبل .. وهو قد قطع كل ما بينه وبين الدنيا
من صلات ، يد الفاس .. وحمل المقطف .. هما ضمان الحياة في
هذه البقعة الفربية من الدنيا الواسعة التي لا امان لها .. بوقظونه
في الفجر .. لا يقضى حاجته .. لا يفرغ امعاه .. كوز ماء يستلمه
ربا ليوم طوله الف عام .. كبسة عيش زادا ليوم ليس له آخر ..
حتى السوط الذي يشق جسده غدا لازمة من لوازم العيشة .. شيء
واحد يرهبه رافع الفاس وحامل المقطف .. ان يضعف .. ان يهون
.. ان يرفع الفاس فلا تكسر الجبل القاسي ان تخت كتفه وتنوء فلا
تحمل المقطف ويصنع التلال التي تعلو وتفصل بين عالين .. هنا
حقيقة واحدة .. يعرفها يقينا .. يعرفها بجسده .. يعروقه ..
بالنبع فوق صدقيه تحت الحمامات الملوشة .. حقيقة يعرفها
بحسده وينكرها بعقله .. هو لا يصدقها وان كان يعيشها .. انه يعرف
نكيانه كله .. مصيره .. اذا تخلخل فلم تشق الفاس ولم يحمل
المقطف .. سيخملونه .. سيخمله هؤلاء الانفار الذين يحدادتهم
ويسكوا لهم .. سيخحملونه ويقلدون به حبا وراء التلال التي تصنعها
المقاطف فوق الجبل .. ليموت مفروعا .. على مهل .. ببطء ..
باتتقام .. ومن العالم الثاني .. عالم ماوراء التلال .. ينبعث منه
القبح .. وتصعد الاهات والانين .. واحيانا صرخات مكتومة
واستغاثات ضائعة .. وهممات خافتة ونداء للام تمتصه الريح
الباردة .. واثارة المفحة الى شربة ماء .. وينقلب
نصف الحى على ميت هو الآخر وجهه مفروم القسمات
عيناه تحملقان في فراغ موحش .. فمه مفتوح .. الشفاه بيضاء

مشقوقة .. وتصفر الريح ويسيل المطر .. ويصنع الثلج طبقة
هشة .. تتلوى تحتها الاجساد .. وتكتسو ماوراء التلال ، رائحة
حياة تموت وموت يتنفس .. اجسام تقلب على جث .. وفوفهم
يندرج قادم جديد هذا شق الجبل .. وثان احرقه العطش طفح
جردل عرق واستنجد صنوف الحكمة في استخدام لتر الماء الذي
استلمه في الفجر وانتهى لتر الماء ولم يكف الجسد الحى عن نشع
العرق .. وسقط ولم يبل شفتيه .. واستقبله عالم ما وراء التلال
وهمس حاملا المقاطف لحملة الفتوس ..
- وسمعته يا احمد .. يقول .. شفته ميه .. حد يبل
شفتى ..

- وعملت ايه باناشد ..

- الكرياج شق كتفى بنص ضهرى .. وخدت المقطف ونزلت ..
ويعود الرجال الذين يحملون المقاطف بروءاهم القاتلة ..
- بعينك يا بدراءوى .. شفت الميتين مع الحيين ..
- انت مش مصدق .. وحياة دى الليلة ومساها .. وحياة
من جمعنا من غير ميعاد ياشيخ صعيدي على بحراوى .. شفت
واحد ميت مطبق بصوابعه على دراع واحد حى .. وده بيفك فى
صوابع الميت .. م قادر ..

- ياتاس دا حرام .. يعملو حبانة للميتين .. وجبانه للحيين ..
والاجساد الساخنة وسط الصقيع والهواء البارد الذى ينشف
الطوبة - لا تكف عن طفح العرق .. الشفاه تجف .. الحلق
تجف .. كل خلايا الجسد تتعصر ، ولا تكف عن طفح العرق ..
.. الشمس تتسلط عامدة متعمدة .. لبرد ينقد كالسامير
المحمية في النار .. ولا تكف الاجساد عن طفح العرق ..

- لكن يا واد يا عواد .. احنا فين ..

- وحياة غرتنا يا براهيم .. أنا تايه ..

- من فين جابوا الناس دى كلها ..

- م البلد يا براهيم .. شوف .. من بلدنا لوحدها طلعوا كام
راجل ..

- لكن يا عواد .. فين رجال بلدنا .. دول شحنوا من بلدنا
لوحدها .. اكثر من عشر عربات ..

- سالت الرئيس صميدة .. قال .. أن رجالة البلد الواحدة ..

يوزعهم على فرق كثيرة .. دا غير اللي بيرموهم ورا التل ..

- بتعرف تحدث الرئيس صميدة يا عواد .. أنت يا واد .. عمرك

شاطر .. ياماكت بتروح سوق السنبلاوي تشتري عجوه ويستفندى
وفول سودانى ..

ـ دا .. انت اللى م لفتش ياابراهيم .. دا بنى آدم .. زى وزبك
تمام .. يطلع عليه الدخان ويقف السجائر .. ومره عزم على بواده
.. وياما كلمنه .. ويقولى ياعواد .. يابحراوى ياخرع .. ومرة
قال لي .. احنا ياواد يابحراوى اكتر من ألف ويس .. جول الفين
كل واحد تحت ايده جول خمسين فواعلى .. وسواعى فيهم هنود
والهنود دول فيهم سيك ومسلمانى .. ومرة شورلى على واحد كان
ماشى زى جزع النخله .. وقال لي انت شايف ياد يابحراوى ياخرع
اللى ماشى ده .. قلت له ايوه ياعم الرئيس صعيده .. قال وحياة
سيدك عبد الرحيم الجنوى .. ده استرالى ..
ـ ياواد ياعواد .. الدنيا واسعه ..

على ان ابراهيم لم يهمنس الى عواد عن الشيء الثقيل الذي يربض
في اعماقه .. لقد شب على انه ليس من الحكمة ان يقص الحلم الا
اذا كان يبشر بخير .. فالحلم يتحقق بتفاصيله في كلمات محددة
تخرجها الشفاة ولم يسمع امه تنطق كلمة «العرسة» التي أكلت
الكتاكيت الصغيرة .. انها تسمىها «المخسوفة» ان المسافة
مرفوعة بين الكلمة التي وضعت للدلالة على الشر وبين الشر
ذاته ..

ـ في القاع البعيد لنفس ابراهيم .. يكمن خوف قاتل ..
خوف يحفل ابراهيم ان يتحدث عنه او يشير اليه .. فالحلم باشياء
سيئة يتحقق بحكاية الحلم .. صورة الجانة الغريبة التي تقع على
مرأى بصر من ابراهيم .. يزريعها عن مخيلته .. فتعود اليها اكتر
وضوحا .. الاموات تتقلب على الاحياء .. ابراهيم يضرب الفاس
بقوة يبعد عن فكره .. موت صلحي صاحبه في الحارة وفي شيل
السباخ وجمع القطن وتنقية الغلت من قبيطان القمح والسمرات في
مولد سيدى ذى النون .. وان يموت الصديق الاعمار بيد الله ، بيده
كل شء .. اما ان يلقى صلحي حيا مستقبل وبا كريما في هذه
الجانة .. ثاراهم يكاد يزريح بيده الفكرة عن دمائه والسواد
سليمان بن عم جرجس النحال وطاقيته الدبلان البيضة .. فينك
يا سليمان ..

فات شفاء منذ شحتنا الغرباء في عربات لا تستجيب لنضرعات
راكبيها وتعود الى تراب تلبه .. اما ان يقدفوا ابراهيم حيا وراء

التل .. ففكرة لا يكاد يصدقها .. فكرة يقاومها بالفاس تضرب
 بطن الجبل .. وهو كله شفل يابو خليل .. في فيطان الوسية ..
 في جبل الانجليز .. في ارض العمدة الحرامي ابن ستين .. كله
 شفل .. كل شفل .. وبني ادم .. غلا .. او نول .. نصبيه كلها
 لقمة عيش .. هدمة تستر جسده .. والآخر حتىين قطن على فمه
 ووراء ضهره .. لكن الناس الانجليز .. الميه بالقطارة .. عيش وأقله
 يكفي لكن الشرب .. والنوم .. حرام .. حرام الشفل من النجمة
 انص الليل .. ياما لعنت الشيف حلموش يابو خليل وصوته الخشن
 المبحوح يووظك لصلة الفجر .. اخترعوا ولاد الكلاب .. الصفاره
 الملعونة .. والرئيس صميدة .. رجل لا في قلبه تقوى او ايمان ..
 حرام عليك باريس صميدة .. فسيل الوش .. قلنا .. نستغنى ..
 لكن يارجل الميه المحبوسة طول الليل في البطن .. مفيش دقيقين
 نفكها .. على الحرام الخولي زيدان نفسه .. الله يعافيه بالعافية ..
 ما كان يقدر يحوشني مفكش الميه .. لكن معلهش .. يابو خليل
 فين كلام الشيف حلموش في خطب الجمعة .. أيها الناس ما يصيبيكم
 الا المكتوب لكم في اللوح المحفوظ .. واللى يتلى بليله .. تكفر عن
 ذنبه .. والله وحشتنى ياشيخ حلموش .. سامحنى .. ياما نعست
 وانت ماسك الورق في ايديك ويتخطب خطبة الجمعة .. وده ذنب
 كبير يابو خليل .. والواحد عليه ذنب .. متعدش وادى احنا
 بنكر عنها ..

مع اختفاء الخطوط الحمراء بعد غروب الشمس .. احس ابراهيم
 بفraig داخل ركبتيه لم يلق له بالا .. واصل طعن الجبل بفاسه ..
 يرفعها أعلى من رأسه بحديدتها التي في حجم دماغ طفل فوق المشط
 الذي يغوص .. ويملا المقطف ليحمله من يصعد به الى أعلى التل
 .. ويرفعهما ليملأ المقطف الثاني .. والثالث .. مقاطف
 بعدد شعر الرأس .. ويصعد الالم الى صينية ظهره .. والمقطف
 يلقي فارغا لم فع مليتا .. والفاس ترتفع وتنزل .. وينتشر الالم
 في ذراعي الفتى .. والفاس ترتفع وتنزل ومقاطف ترمي فارغة
 وتشال طافحة .. والظلام يسقط بيضاء وتقاد الفوانيس والكلوبات
 وتترافق خيالات الرجال والفتوات والمقاطف في عيني ابراهيم ..
 وتدق عروق دماغه تحت الحمامتين الواقعتين أعلى صدقه .. ويرفع
 الفاس وتبعد رأسها الحديدية اكبر من قبة سيدى ذى النون ..
 - واد ياهام ..

- ايه يابراهيم ..
 - انا حاسس اتنى تعبان شويه ..
 - احمد باو خليل ..
 - امته .. ه .. يخلص النهارده ياواد ياهمام ..
 - لسه بدرى يابو خليل ..
 - ياواد ياسمام انا دايغ ..
 - امود بالله .. اصبر شويه ..
 - مش قادر اشيل الفاس ..
 - اقول لك على شوره ..

انت شايف شجرتين الينسون .. اللى هناك دول ..
 وبين شجرتى الينسون الكبيرتين .. اللى ابراهيم بجسده .. لم
 ينس .. اسلم جسده لامه الارض .. يتنفس فوقها كما يتنفس
 ورق الينسون .. وكما تتنفس دودة القرفة .. والسلحالية التي
 تحمل مفتاح الجنة وترقد تحت جنبه .. وكما تتنفس حفنتات التراب
 الرطبية التي تظللها غصون الينسون ..
 الخولى زيدان يشد على يده .. والله حمد الله ع السلامه ياواد
 يابراهيم ..

وامه .. خالتى ام ابراهيم .. تحضنه وتبكى غير مصدقة ..
 مش مصدقة بالبراهيم ياضنناها ياسيدى ذى النون له دستين شم ..
 وليلة لاهل الله .. يقرأ فيها الشیعی حلموش عشان رجعتك ليه
 بالسلامة ..

سـت اـيـهـاـ قـادـمـةـ .. مـنـ بـعـيدـ .. تـفـطـيـ وـجـهـاـ .. وـ .. صـوتـ
 غـرـبـ عـنـ مجـتـمـعـ شـجـرـتـىـ اليـنـسـوـنـ وـدـوـدـةـ القرـفـةـ .. والـسـلـحـالـيـةـ
 وزـيـدـانـ .. وـخـالـتـىـ اـمـ اـبـرـاهـيمـ .. وـسـتـ اـبـوـهاـ صـوتـ يـاتـىـ منـ اـغـوارـ
 مـجـمـوـلـةـ .. وـيـتـقـلـبـ اـبـرـاهـيمـ وـيـزـبـعـ عـنـ نـفـسـهـ اـكـوـامـ التـعبـ وـالـنـعـاسـ
 وـيـنـقـلـبـ عـلـىـ جـنـبـهـ الثـانـىـ وـالـصـوـتـ يـتـضـعـ اـكـثـرـ .. فـاـكـثـرـ .. وـيـفـزـعـ
 اـبـرـاهـيمـ .. وـفـتـحـ اـبـرـاهـيمـ عـيـنـيـهـ .. وـوـقـعـتـاـ عـلـىـ حـافـرـىـ حـصـانـ ..
 وـشـالـ بـصـرـهـ الـىـ اـعـلـىـ .. وـتـحـلـتـ اـمـامـهـ الرـؤـبـاـ المـخـفـةـ .. اـنـحـلـبـزـىـ
 عـلـىـ ظـهـورـ حـوـادـهـ .. نـزـلـ الرـاكـبـ .. رـطـنـ .. شـدـ كـفـ اـبـرـاهـيمـ الـيـمنـيـ،ـ
 وـقـرـاـ رـقـمـاـ مـشـتاـ .. عـلـىـ قـطـعـهـ حـدـيدـ تـلـفـ حـولـ مـعـصـمـهـ كـسـاعـهـ الـيدـ ..
 اـنـطـلـقـ اـحـصـانـ بـالـرـاكـبـ .. حـمـلـ اـبـرـاهـيمـ فـاسـهـ وـجـرـجـرـ هـواـحـسـهـ
 وـمـخـاـوـفـهـ الـىـ مـرـقـتـهـ الـىـ فـرـقـةـ الـرـئـيـسـ صـمـيـدةـ .. وـكـلـهـ يـنـتـفـضـ
 بـالـفـرـجـ .. حـكـىـ لـعـوـادـ ..

— .. أنا خايف يا عواد ..
— .. الخوف من الله ..
— ه .. بموتونى ياعواد ..
— ياشين فال الله ولا فالك ..
— نفسي اشوف امى .. ياعواد ..
نفسي ياعواد .. اشوف بلدنا قبل موت .. سجرة الجميز
الكبيرة .. أبو قردان .. وأبويه ..
انا كنت بخاف من ترب بلدنا .. لكن الوقتى .. ياريت ادفن
قبها ..
— ياؤاد يابراهيم سلامتك م الموت .. وحياة ذى اللبلة يابراهيم
انت هندي أعز من نفسي ..
— انا عارف ياعواد .. وعاوز اقول لك حاجة ..
— انا تحت أمرك .. قول ..
— سنت ابوها ياعواد ..
— وحياة سيدى ذى الثون .. هترجع لها سالم ..
— آنني عارف ياعواد .. قلبي حاسس .. أجوزها .. سنت أبوها ..
ياعواد لما ترجع البلد ..
عواد يرجع جسده كالمحوم .. ويضع كفه على قم ابراهيم يمن
شر الحلم ان يتجسد في الكلمة وكلمة عرسة تفتال صفار الفراح
كالعرسة ذاتها ..
— أجوزها ياعواد .. ذى طيبة .. قلبها أبيض ذى اللبن الحليب
.. ياما كان فى نفسي .. انى مش كنت بعها زى م واحد يجور
واحده .. كت بعزاها زى امى .. اختى .. واحد صاحبى .. ذى ..
غلانه .. ياما شافت كان فى نفسي اريحها شوية من غيطان الوسية
غلبانه .. ملهاشى حد غير امها ..
— كفابة يا ابراهيم ..
— انا بقول لك اجوزها .. عشان عارف انك بتعها ..
— ..
— .. ثورب قين ياعواد .. احنا قين .. ويسكونا بدل م يبقى
واحد يبقى اثنين ..
بات الفرج في قفص الثعبان ..
في الفجر .. لم تسق فرقة الرئيس صميدة للعمل ..
.. الشمس العجوز كسا شروقها سحابات كثيفة سوداء ..

فرقة الرئيس صميدة تقف حلقة .. في وسطها انجليزي يبسداته
الصوفية الصفراء داخل معطف ثقيل تصطف ازراره من تحت الرقبة
الى ما بين الساقين .. تزين اكتافه وصدره نياشين مجھولة الهوية ..
قدماه غاضستان في شرائين من الصوف .. الحذاء لامع كالبصقة ..
الالحية حلقة ناعمة .. الشارب مثلث قاعدته شفة رقيقة .. يعبر
بلسانه عليها يمسح آثار آخر كوب من زجاجة ويسكى كبيرة ..
ينتهي الشارب تحت انف طويل كالبلحة الوارمة في لكنه متکرة ..
كالخواجات تجار القطن .. اعلن ان ابراهيم سالم .. من فرقة
الرئيس صميدة والذى يحمل رقم ١٩١٧ .. نفر كسان .. وثبت
انه هرب من الخدمة .. ونحن في حالة حرب كبيرة .. وقيادة المعسكر
قررت جلده مائة جلدة .. عقوبة له .. وتحذيرا لغيره .. والقيادة
هذه المرة قد استعملت الرافة ..

.. وسجعوا فتانا ابراهيم سالم الذى يحمل رقما لا يعرفه ..
ادخلوا راسه في فتحة خشبية ضاقت باستداره الرقبة .. شدوا
يديه الى الامام .. قوسوا ظهره .. ووقفت الطاقية الصوف الحمراء
المشفولة بالفرزة ومرت هبة هواء باردة هزتها .. ولم تر فهها يد ..
وظهرت البقعة السوداء على جنبه الاسر .. وحمة ام ابراهيم في
حفنة عسل اسود .. ومرت هبة هواء ثانية باردة .. فحركت شعر
«الاصلة العاقيق ..» ورفع صميدة يمناه بالسوط مزحوما بالزيت
ثقيلا .. وصرخ ابراهيم .. وصرخ .. وارتقت الايات .. لم بسمها
سيدي ذى النون صاحب الشمع الذى لا ينطفئ .. وارتقت الايات
.. والاوراق المقدسة فى يد الشيخ حلموش على منبر الجمعة ..
وخفتت الايات .. تدلت رأس ابراهيم .. العدم مستمر .. ستين ..
واحد وستين .. اثنين وستين .. وانتفض الرجال الواجبون ..
الساكتون .. وحمله بعضهم حمله عواد .. واستقبل ابراهيم ماوراء
التل ..

(۶)

.. خمسون سنة ..
.. تنقص سنة .. سنتين .. تنقص عشر سنوات ..
.. قل تنقص خمسين سنة .. نحن لا نعد بالأرقام ..
.. نحن في حواري تلباته .. قريتنا .. غيطانها .. وسكنها
وأشجار الجميع .. وأبو قردان الوف وحميرها التي تدب بأقدامها
متهملة متباطئة .. تحرك الرقبة وتهتز الأذنان الطويلتان المتذليلتان

اهتزازة وقرة .. تصنع مع دبيب الحوافر المتمهلة قطعة بالية
شجية .. تقول ان المصريين لم يتموا بعد رغم تعاقب فصول الفيضان
.. بناء الهرم الاكبر ..

(٧)

الشمس على مهل تصنع يوما جديدا .. نورها يكاد يمس اعلى
شجر الجازوain والكافور .. سطح الترعة تتضاعد منه بوخة كالتي
تضاعد من حلة بامية تغلق غطاها « خالتى الست » تشق
طريقها .. تبين بوضوح آثار قدميها فوق التراب الذى ختمه
ما امتصه من ندى .. قشرة التراب الرطيبة تعلل بحنو الشقوق
المفتوحة في كعبى خالتى الست .. الشمس تعلو من وراء غيط الدرة
.. قطرة ندى تلمع خضراء حمراء صفراء على ورقة حلفاء مدببة ..
ادرار الشتتين المفرودة كالرالغيف تنتشر على سطح الترعة ..
وتغفر فوقيها ضفدعه .. اعواد النسيل الخضراء تمتد على الحافة ..
شجرة السنط العجوز تعيل بجلدها على قلب الترعة وتصل الى
قرب البر الشانى وتحذى الفلاحون الخبائث قنطرة .. جينية العمدة
القديمة تتدفق خالتى الست برائحة الجوافة .. قوية نفاذة ..
نور الشمس يسقط على ورقة الجوافة الخضراء الداكنة وتبرز حبات
الجوافة .. يقعا صفراء .. اللعب يزحف الى فم خالتى الست
وتفرق لسانها ..

- سبحان الدايم .. عادت جئينه الاصلاح

- اشوش واحدة ياعم جبرين ..

- بس يابت ه يعطى من ملك غيره ..

- ملكه والا ملك غيره .. فتمت والحمد لله ..

- بتحدى مين ياست ابوها ..

- انت فين داهية ياواد ياواد .. دايمها ورايا .. ورايا ..

- انا فت ع الدار .. ندھت .. محدث رد :

-- مين ه يرد .. ياحسرا .. انا صاحبة من ادان الفجر ..
غسلت وشى ويليت لقمة .. وقلت يابت ادحدحى .. اسبيفهم
ع الفيط ..

- ترکبى الحمار ياست ابوها ..

- معدشى يعرى .. السكه خلصت .. الفيط قرب ..

- والله انا ياست انا بيعز على بهدلتك فى الفيطان ..

- مش عيب ياواد .. ايم .. مين اللي مرتاح .. الله يرحم

الجميع ..

.. اختار عواد لست أبوها خط قلب للقناية .. قطنه خفيف ..
تقعد حرف القناية وتميل الشجرة .. وتنترع القطن من اللوزات
وتشن الشجرة .. وتضفط بيدها على حرف القناية وتنقل
للسجدة الثانية .. اولاد عواد .. ونسوان اولاده اولاده اولاده
بعد خطوط الفيظ من الحد للحد .. وقف خفيف الاصلاح الزراعي
بسأل ..

ـ عاوز كام كيس ياعم عواد .. !!

ـ هات كيسين ياليني ..

ـ قولى موال ياخاله است ..

ـ عم عواد لحفيده ..

ـ اجمع ياواد وانت ساكت ..

ـ ابن عم عواد البكري ..

ـ ياراجل .. سيب العيال يتفگو .. احنا في مدرسة ..

ـ ياتك الفم .. لسانك طويل زى ابنك ..

ـ قولى موال ياخاله است .. وانا ه اجمع لك الخط بتاعك ..
عم عواد قدف حفيده بطوبه . تلقاها الصغير باسمها عابثا .. ونظر
الى أبيه يرى وقع ماحدث على قسمات وجهه ..
ـ ابن عم عواد البكري ..

ـ ياراجل نقطنا بسكاتك .. سيب العيال يجمعوا .. والا اقول

ـ ك . قوم دوح . فوت على النقطة دول كانوا هاوزينك ..

ـ اخرس لسانك ياوله .. دك خبيه .. انت وابنك في يوم
احد ..

ولكن حفيدا آخر مال على الصغير طالب الموال ..

ـ ياخايب الموال ما يجيش كده .. سيبه ييجي لوحده دي خالتك
ست متعرش تشتغل الا م تقول مواليل ..

ـ مين اكبر ياوله .. جدنا والا خالتك است ..

ـ انا سمعته مرة يقول انهم من سن بعض ..

ـ صحيح كان داير عليها قبل ما يجوز جدنا ..

ـ الله يرحمها .. قبل ماتموت سمعتها بتقول لا بوبه ابوت يابراهيم،
لوش امان .. ياما جرى ورا ست أبوها .. كان في نفسه
وزها ..

ـ عم عواد لم القطن من حزم الجميعة والقاها في الكيس .. ادار

يده في الكيس يسوى القطن ويكتبه .. واسند ظهره الى الكيس
وفى ظله اخرج عليه الدخان .. وانتزع ورقة بفرة من الدفتر اخذ
من العلبة مسكة اصبعين دخان فرط .. انام الورقة على السبابتين
.. وبالابهامين ، برم الورقة الرقيقة .. وبطرف لسانه بدل حرفها
وبيرمها .. فاستوت في يده سيجارة تعلقت بين شفتيه .. سحب
من جيبه كبس قماش صغير .. اخرج منه قطعة حديد مستديرة
مع قطعة سن مشطوفة قرب يده من فمه وضرب الحديدية على
الصخرة فتطايرت بضع شرارات وشد نفسا عميقا فاشتعلت
السيجارة .. وزم شفتيه تاركا ثقبا ضيقا .. طرد منه الدخان
فابشق خط افقى .. ومن طاقتي انهه نفث عمودين من الدخان
تقاطعا مع الدخان المنطلق من بين شفتيه .. وسرح ببصره فمسح
الاولاد ونسائهم واحفاده .. وبسط ساقيه .. ووقف عند ست
ابوها .. ربض عرق داخل صدره ..

- فين يا اولاد .. عمر .. عمر طويل .. من ايام م رجعت من
السلطة .. رحت لامها .. كانه امبارح .. دارهم اللي مغيرهاشى
الزمان .. ياما سمعت من المرحوم أبويه .. الفاتحه لروحه ..
وروح امواتنا .. واموات المسلمين .. ياما سمعت منه ان الدار دي
كان فيها بدل الرجال خمسة .. ابوست ابوها .. واخواته ..
سيحان الدايم .. فضل الوالىه ويتها .. مش هانسى ابدا ..
يوم م قلت للوالىه على اللي حصل للمرحوم ابراهيم الله يرحمه ..
الوالىه حزنت عليه .. يمكن اكتر من امه .. الا ست ابوها ..
م فيش وحده بالوصفة دي .. تقع من طولها ساعة م تعرف ان
ابراهيم مات .. يعني يا ولداته لو عرفت اللي حصل له .. الله
اعلم .. كان عملت ايه في روحها .. قاست كثير .. م صدقتش ان
ابراهيم قال ان ياعواد اجوز ست ابوها .. الله يرحمك يا ابراهيم
.. فين العود السرح الحلو .. ياما التراب بيأكل ..
- اجوز ست ابوها ياعواد ..

كانت بتحبه .. وشهاده لله .. انام كت بعتقد فى حكاية الحب
دي .. وللوقتى كمان .. لكن ست ابوها .. فيه واحده تعمل كده
.. تيب لو مش بتحبني .. كان اجوزت حد غيرى .. امهما قالت
لها ..

- بابت ابوها .. يابنتى .. الاعمار بيد الله .. وربنا حلل الجوائز
عواد مش غريب ..

— يالله راسى وألف سيف .. أنا خلاص هرفت بختى ..
— يابنتى أنت لسه صفيرة .. لا رحت ولا جيت والبخت عند
الله مدارى ..

— يامه آتني مش هالجوز .. لا عواد ولا غيره ..
— سببها ياخاله امباركه .. هيه .. رامية عينيها على حسد
تاني ..

— ياعواد يابنى .. دى بنتى وآتني هارقاها .. وحياة دى الليلة
ومساهها يابنى .. م حد في دماغ ست أبوها .. سببها شوية ..
الفرقة صعبه .. ودول يابنى كانوا .. زى الاخوات ..

— ياعواد يابنى .. شوف عدلك .. بنتى حصل فى دماغها حاجة
.. دى ياحبة قلبي طول الليل تعيط .. وساعات تفرخ وهيه
نایمه ..

— ياخاله امباركه .. المرحوم ابراهيم قال لي .. انه م كانشى
يحب ست ابوها .. زى م واحد هيجوز واحده .. زى م يكون
اخوها ابوها .. وانى مطرحه .. الجوائز نصيب لكن آتى خدام ..
زى ابتك تمام .. وست اوها على كل حال اختى ..

— البقية في حياتك ياست ابوها .. الدوام لله .. ماتحمليش
هم .. أحنا محتاشي غرب عن بعض ..

— كتر خير لك ياعواد .. عملت اللي عليك واكتر .. لاكت عارفه اكفن
ولا ادفن .. ولا عارفه يعنى من شمالي .. كتر خير لك ..

— كان عندها حق .. مين كان يتحمل اللي حصل لها .. الدار
ناعتهم اكبر من الجن .. تنام فيها أزاي ياولداه لوحدها .. وال الحاجة
الغريبة انها ترد كل اللي راحوا لها .. مسكنة .. كان عندها حق ..
مين كان يتحمل اللي حصل لها .. آتني نفسي لما قالوا لي ياعواد ست
ابوها سدت الدار عليها ومبتعلشى ادى جمعه بحالها .. خفت اخش
الدار عليها وكانت ليلة زى الظين .. دفعت ع الباب م حدش رد
مرة .. واثنين وتلاته .. أدورت من ع السطوح .. ونزلت ع السلم
الخشبي .. جزع نخله منجور .. لقيت نفسي جوه الدار .. ضلله
خرس .. ياست ابوها .. ياست ابوها .. خفت .. قلبي ضرب
والفار لمب في عبي ..

ياعاد يمكن ماتت .. يمكن هجت .. زى م بتنهج فى ميعاد جمع
القطن كل سنة يمكن .. يمكن .. والدار زى الهو ..

— ياست ابوها .. آتني عواد .. أطلعى .. باشيخه حرام عليكى

حلفتك بيدي ذى النون وحياة ابراهيم .. وفين .. وفين ..
لما سمعت عياطها .. يناس دا حرام .. دا الوليه دى تعذب عذاب
الله يلعن العذب .. على اللي بيعبوه ..
- يا عواد .. كتر خيرك ..انا كده مبوطه .. سيبنى ..
- انتي فين الاول .. آتني متن شايف ..
- آتني في القاعه اللي مات فيها امي ..
- اطلعى ياست ابوها ..
- سيبنى ياعواد .. اطلع اعمل ايه .. خير ربنا كثير .. العيش
في المتنه .. والزير مليان ميه ..
- على العلاق من حلمه بنت البرى يحللها شيخ ويحرماها شيخ
ما اسيك تسامي لوحدك في الضلمه ..
الضلله موت قلبها .. الضلله وحشه يناس .. انت استغفر الله
العظيم يارب .. م اخفن من الملائكة اللي في القبر زى م اخاف من
الضلله .. الضلله عملتها راجل .. فيه واحدة زيها كانت تستغل
الشفل دى كله .. أراضي الوسيه .. أرضي ارض .. حوض حوض
.. فين .. والا فين .. والا فين .. انت يللى اسمى راجل ..
م اشتغلتش زيها .. من ساعه م الوسيه تحط بذرة القطن ايد ست
ابوها ما تعنى عن الخط .. تزد .. تخل تنقى الغلت ..
الخندوه .. تلقم الكيماوي .. الحاجه وحشه يناس .. دى كانت بتستقى
تحت مكنته بالليل مع الرجاله .. والا كاده .. ان الناس خلاص ..
قالت ست ابوها .. عادت راجل .. راجل ياخسارة .. ياخسارة
ياولاد .. الله يلعن الايام .. فين .. فين ست ابوها .. اللي كانت
تبجمع القطن طول النهار في بؤونة الحجر .. السمس م تشو فشى
الدها لا وشها .. آخر النهار وهي مروحه .. ولا بنت ناظر الوسيه
كمبها يبقى احمر زى الجزره ووشها زى الطمطممه .. الله يرحمك
ياابراهيم مش ه انسى الموال بتاعك .. عندي من الوره .. كانت
بستان ورد صحيح .. مين يصدق .. الناس مغدوره .. محدث
شافها من اولاد الايام دى .. ورحت لها تاني بعد م ابتوذت وبعد
م جبت بسلامته ابراهيم .. على الحرام كان قصد خير ..
- ياست ابوها .. ربنا حلل الجواز من واحدة واتنين ..
- ياست ابوها سيدنا النبي .. اجوز بعد سنتا خديجة ..
- ياست ابوها انا خدامك .. خليكي في دار ابوكي زى ما انت
دانى ومراتى والعيال تحت رجلينك ..

- أكثر خيرك ياعواد .. عملت اللي هليكة واكتر .. والاگاده الناس
هملونى ولى أمرها الواد السعيد بن فرحة يقولى ياعواد آنى عاوز
اجوز ست ابرها وجای لك .. تقول لها .. قلت لها .. اعمل ايه ..
أى حاجة احسن من الضلمه اللي هايشه فيها .. والشفل ليل نهار
في ارض الوسيه .. وارض اللي يسوى واللى م يسواشي .. انا
سمعت اباهاتنا بودانى اللي هياكلها الدود .. اتها بنت اصل ..
دارهم دى .. كان فيها بدل الجاموسه اثنين .. وبدل البقرة اثنين ..
حتى الجمل سمعت ان المرحوم أبوها كان عنده جمل .. حكمة ربنا ..
صحيح زى م قال الله يرحمه الشيف حلموش .. اللي يسأل ربنا ..
عملت دى ليه .. يبقى كافر .. راح فن دا كله .. الرجاله ..
والبهائم والذئبا .. والآخر نصفصف عست ابوها .. والطوفة تيجى
لها .. لا ترضى بيه .. ولا بغيرى :

- ياعواد .. كنت انت أولى من السعيد بن فرحة والا فire ..
دا انت جماليك م تتعدىش .. عييت .. جبت لي .. الليمون
البنزهير .. وجيست مع المرحومة امى وخدتونى للشيخ .. وجبت لي
السلحبة ربطةها في رقى .. وخدت اليه اللي الشيخ كتب عليها
ورشيتها فى سبع مفارق .. ولما امى ماتت م سبتشيشى .. ومعايه
زى اخوبه واكتر .. والله فيه اخوات م بيعملوا كده .. كنت انت
أولى ياعواد .. لكن أنا مش بتاعة جواز .. جواز وقلنا كل شىء
قسمة .. لكن اللقمة .. الحاجة وحشة دانت عفونة .. ياما رجمت
الناس بزگاه رمضان .. وقى رمضان ..

- ياعواد انى مش هد اكل الا من عرقى .. طول ما فيه صحة ..
اروح واجى مش هاكل الا من عرقى .. لما اعيا يتولانى اللي بيتولى
الناس كلها ..

- ياستى .. ده مش عيب .. والاقربون أولى بالمعروف ..
- انت انسه هتعرقنى ياعواد .. بعد العمر الطويل ده .. العيب
وقلتة .. انى م بخدى حاجة من حد الا بعرقى .. الحمد لله .. الحمد
لله ع الصحة .. رضى .. ده ثواب .. سروح الفيط حسنه عند الله
يابخت من نفع واستنفع ياعواد ..

- همرك ناست ابوها .. دمافك حجر .. لينى باوليه ..
- اندا والله .. سيدنا الخضر .. جالى فى العلم .. وقال لي
ياسن ابوها .. سروح الفيط حسنة عند الله ..
- تب ربى نفسك شويه ..

ـ يارد باعواد .. الراحه بعد لقاء الله ..
.. تعامت الشمس فوق « شرخه » عم عواد .. فارتقت حرارة
الفيط وما فيه حتى قاربت الالتهاب خالتى است العذراء .. سرت
ابوها .. تظلل رأسها اعواد ملوخية خضراء مربوطة من جذورها ..
الاصابع الرقيقة الناشفة تقف مرتعثة على لوزة القطن .. الاولاد
يملون عليها يخطفون لوزة من هنا ولوزة من هناك يخففوا الخط
آمامها .. الصهد حاصل عم عواد فهب فرعا من البشر المظلم البعيد
الذى وقع فيه .. سقط بصره على طرطور اعواد الملوخية الذى تحتمى
به سرت ابوها ..

ـ عمر طوبيل ياست ابوها .. فين يارلداه .. لو ترضى البقاء فى
منزلهاو يتكتلها عم عواد .. اقل لقمة تكفيها .. لكن رأسها ناشفة
وتعلبت بعنادها ..

.. ووقف وراءها .. نادى ولدا من احفاده .. وامرء ان يحتم
حرف القناة .. طلب من سرت ابوها ان تستريح طول القيلولة تحت
شجرة الصفاصاف في راس الفيط .. رفضت سرت ابوها .. اقسم
عم عواد ايمانا بالطلاق وبحياة سدى ذى النون والست ام هاشم
انه لن يترك سرت ابوها تجمع القطن في القيلولة .. احست سرت
ابوها ان عواد لاينوى التزحزح عن رغبته اعلنت اليه .. أنها ان
تقاضى منه الا اجر نصف يوم .. وفي ضربة خاطفة قارنته بالوسية
.. وابتسمت في وهن مفضلة اياه عن الوسية التي كانت تقطع اجر
اليوم كاملا . لو مرض النفر او طرده الخوى قبل فطسة الشمس
احتدى عم عواد .. واصر على عودة سرت ابوها الى البيت ..
.. استلهمها الطريق الى المنزل .. عزم عليها ان تركب .. ابنته
سرت ابوها في ود ..

ـ انت يارد باعواد عقلك .. جرا .. له حاجة ..

ـ ياشيخه اركبى ملعون ابوالناس كلها ..
وهاجم عم عواد عناد سرت ابوها بمناسبة رفضها ركوب الحمار
وفى تلقيف دماغه احلام الظهيرة فى ظل كيس القطن ..

ـ عمرك دماغك ناشف .. على الطلق ..

ـ طلاق من مين ياخببه .. اجوزت اتنين ووديتهم .. يافجور ..
يا نزش ..

ضحك عم عواد .. ولم يكن لديه اى نبض ان يصف سرت ابوها
بالكبير او بالشيخوخة .. لا سمع الله ..

استوى عم عواد .. على ظهر حماره الاسود العجوز وفي محاذاته
سارت ست ابوها .. الحمار يحرك رقبته في تؤدة .. اذناه الكبيرتان
تهتزان على وقع الحوافر البطيء .. تناغم صوتي وحركي يصاحب
الكلمات بين عم عواد وست ابوها .. عم عواد يعاتب صديقة
العمر .. في الم واضح .. فهى لا تأكل قدر ما يتبقى من طفل ..
وخير ربنا كثير .. وقسمها بمن رفع السماء بلا عمد عم عواد يشيل
اللقمة من فمه الى فم ست ابوها .. وجاؤه ان ترتاح .. لكن ست
ابوها تفاجئه ..

ـ فاضل اد .. ايه .. على ما يكمل الجنـيه

ـ دماغك ناشـف ناست ابوها ..

ـ انا بـدـى اكـمـلـ الجنـيه .. عـلـشـانـ اـمـوـتـ وـاـنـاـ مـرـتـاحـ اـنـ سـاـيـهـ
تـكـاـيـفـ الـكـفـنـ ..

.. كانـاـ قدـ اـقـتـرـبـاـ منـ القـرـيـةـ .. اـعـتـرـضـهـماـ الـوـادـ شـحـانـهـ الفـقـيرـ
المـيـرىـ .. أـعـلـنـ الىـ عمـ عـوـادـ انـ نـقـطـةـ الـبـولـيـسـ تـطـلـبـهـ فـاـصـفـرـ اوـلـادـهـ
فـابـ عنـ الـمـدـرـسـةـ بلاـ تـصـرـيـعـ وـحـرـرـوـاـ لـهـ مـحـضـراـ وـمـطـلـوبـ منـهـ كـلـمـتـيـنـ
فـىـ النـقـطـةـ ..

ـ سـحـبـ شـحـانـهـ عمـ عـوـادـ الىـ نـقـطـةـ الـشـرـطةـ ..

قادـتـ خـالـتـىـ السـتـ قـدـمـيـهاـ الىـ دـاـخـلـ الـقـرـيـةـ .. كـنـسـتـ صـحنـ

الـدارـ الـوـاسـعـةـ مـلـأـتـ الـبـلـاـصـ منـ حـنـفـيـةـ الـجـمـوـعـةـ ..

اوـقـدـتـ الـكـاـنـوـنـ تـسـخـنـ صـحنـ الـمـلـوـخـيـةـ .. خـيـمـتـ الـعـتـمـةـ .. دـاـخـلـ

الـدارـ الـكـبـيـرـةـ .. رـفـعـتـ رـأـسـهـاـ الىـ السـمـاءـ منـ صـحنـ الدـارـ الـمـكـشـوـفـ

بـصـعـوبـةـ تـبـيـنـ شـقـاـيـقـ فـيـ السـمـاءـ .. حـسـرـتـ الـقـرـطـةـ عـنـ رـأـسـهـاـ

عـرـتـ مـقـدـمـةـ شـعـرـاتـهـ الـبـيـضـاءـ ..

فـتـحـتـ صـدـرـهـ .. رـفـعـتـ كـفـيـهاـ مـفـتوـحـتـيـنـ فـيـ مـوـاجـهـةـ وـجـهـهـاـ ..

وـفـىـ بـتـلـ عـمـيقـ .. هلـ .. هـلـاـكـ ..

ـ اـجـعـلـهـ شـهـرـمـبـارـكـ ..

.. آـمـيـنـ ..

.. آـمـيـنـ ..

.. آـمـيـنـ ..

فرح سلامة

مبروكه يام منصور

ولم يجب عم منصور .. كان في دنيا ثانية .. كان دماغه يدور
.. يوم مakan راجع من الفيظ المقرب يسوق حماره الهزيل أمامه ،
ويسحب الجاموسه والعجلة الصغيرة المربوطة في رقبة أحماها ، وبين
القافلة الصغيرة ، يسر عم منصور ، تصفع قامته المديدة ، هبة
هواء بارد مرة ، و قطرات المطرمرات ، وبقدميه حداء ضخم من
الطين المخلوط بقش السكة وأعواد البرسيم ، أما البشت فلا يكاد
يستقر على كتفه عم منصور .. ذلك أن الطريق مزدحم بالجاموس
العائد آخر النهار .. وإذا مارات جاموسه جاموسه أخرى .. فان
عيونهما تتسع أولا ثم يحدقان في بعضهما ، وأخيرا ترفع كل منهما ،
رقبتها الى اهل .. وسرعان ما تلتقي راساهما عند القرون في نطاح
رهيب .. وعم منصور يخاف على جاموسه ، فما ان يحس بقرب
الصراع حتى يلقى البشت على ظهر الحمار ، ويترفرغ بلا وقاء من
المطر ، لحماية الجاموسه .. وعند اقترابه من باب الدار ينادي ،
حوشى اللي في السكة يانظيره ، وترسخ نظيره باخلاء ما يكون في طريق
البهائم .. وتفتح باب الزربية ، وتولى هي عملية الربط والعلف ..
وعند عودة عم منصور من الجامع ، تكون قد حضرت الاكل ، وحضر
سلامه والأولاد .. ويتناول الجميع ، العشاء استعدادا للنوم عميق
.. لكن تلك الليلة وضعت نظيره الاكل فوق الطلبة وتصاعد بخار
فته العدس ، وثلاثة اربعة بصلات تحيط بصينية الفتة .. واقام
عم منصور من أصابعه للبنصر والوسطي والسبابة شيئا شبيه
مشط الفاس ، وقرزه في الفتة وباصبعه الابهام حصر اللقمة
ورفعها الى فمه ، وكانت ساخنة ، فتفخ .. ثم حدد بصلة ورقة
قضمة يده وهو بها عليها فتفسخت ، وهم أن بعد بهذه اللقمة
ثانية ، الا انه لاحظ ان سلامه ابنه لا يزال جالسا القرفصاء في ركن
القاعة ، وقد اتخد هيئة من يستعد لشيء ما .

- ماتخشن تاكل يابشى .

- لا .. مش واكل .

- ليه .. انت العشيست .

- الكلاب اهي بتاكل .. حد بيموت من الجوع .

- مال الوراد ده يانظيره .

- ياخوهه ماليش دعوة .. انت حر انت وابنك .

- انتقى يامره ياجموسه .. الوراد زعلان ليه .

— أنا مالي ، هو .. هاوزاً .. يجوز .
— جواز أيه ياسلامه .. مش تستنى يابنى لما يفيس لنا فرشين .
— هااستنى لامته .. ثلاث بنات درت عليهم والآخر اجوزو غيرى
وأنا بقىت مثله في، البلد .. هالجوز قاطنة بنت الشيف عطيه .
لا مانش سارح .
— اللي مايسير حش ماياكلش .
— أنا عارف انك هاتقول كده .
وتدخلت الام — من بعيد .. من وسط الدار .
— جوز الواد يامنصور .
— اسكنى انت مالكىش دعوة .. ياطور الله في برسيمه .
— ماليش دعوة ازاي .. هو مش ابني والا ايه .. يعني لما يعملها
ويطفش زى مايقول مين اللي هايتفعنا .
— ٠٠٠

واحس عم منصور بالهزيمة .. ولكنه تحامل .
— هالجوزه منين يانظيره .. الايجار يادويك سديناه ، والقرشين
اللى زادو م جبنا بيهم هدمتين واشترينا الجحش .. والكمواوى بكره
ربنا يفرجها نبيع شوية قطن صيفي والا شوية رز والسته الجاية
ربنا مابنساش عبده .. وخاف سلامة ان يقتنع بكلام ابيه ،
فعاجله .
— شوف .. ينساه مابنسهش أنا ماليش دعوة .
... وقضى عم منصور ليلته مشغولا .. فهو لا يملك مايتحقق به
رغبة ابته ، وعرف من كلام زوجته ان الولد قد يهرب ويشتغل فى
قرية بعيدة ، وهو لا يستفنى عنه فى الفيظ ، فسلامة هو الذى
يقوم بالعمل فى الفدادين الاربعة ، وبدا بالرجل ميل الى لوم ابته ،
ولكنه راجع نفسه فالولد قد احب ثلاث فتيات ثم تزوجن بغيره
لكثرة تأجيل ميعاد كتب الكتاب ، والارض على رأى المثل « اللي
يحبه القرد يعلق به الجحش » واحس الرجل انه فى ورطة ..
وأخذ يبحث عن حل .. وكان النعاس قد حوم حوله عندما استقر
على ان يزور الشيف عطيه ، ويستمهله كتب الكتاب الى السنة
القادمة .
... وفي الصباح بدأ سلامة حركة العصيآن المدى ، فلم يتناول
انطاره ولم يحمل فأسه .. وآخر عم منصور السلامة ، فقاد قافلته
الى حقل البرسيم .

... وبعد صلاة العشاء كان عم منصور يطرق باب الشیخ عطیه ، وبعد الترحاب والسلامات ، بدأ عم منصور ممهداً للموضوع مستعيناً بالقراءة البعيدة والجوار .. وانتقل إلى حالة الأرض وما لتطله من تعب ، ثم أردد متزلفاً ، بعد أن أشبع إبناء اليوم تقريراً ، « هو أنت ياشيخ عطیه كنت حتقدر تفتح عينيك في وش أبوك المرحوم جاب الله ، أهو ده الأدب صحيح » وطرق الحديد ، ظناً منه أنه قد سخن ، وارتدت المطرقة ، خالية ، فالشيخ عطیه ، ربنا يبارك ، عنده أربع بنات ، كبراهن فاطمة والمسألة استوت ، والرجل يريد أن يطمئن على مستقبل بناته قبل الرحيل ، والبنت أن كبرت ضاع سوقها « وحرام برضه يامنصور ، نفوت سوق البنات » وخرج عم منصور مهوماً ، فالحل الذي كان قد أطمان له خاب ، وهو بين أن يزوج سلامه من فاطمة ، وقد أخذ مهلة أسبوعاً ، أو أن يترك سلامه بعملها ويطفل ، والارض تبور ، وتبقى فضيحة .. وماكاد عم منصور يضع قدمه في الدار ، حتى فاجأه نظيرة .

– خير يا بو سلامة .

– خير بانظيرة .. الرجل العكروت عطیه بن جاب الله الحرامي مرضاش البنت تستنى للسنة الجایة ، وهو سلامة جاته الفم مش لاقى الاناس الواطية دى .

– البنت يامنصور .. شهادة لله .. طيبة وشاطرة .. تقوم الفجر تملئ الزيز وتكتنس قدام الدار .. وتلزق الجلة وتحلب البقرة .

– شاطرة ، الاعوينة .. احنا في الواد اللي هايعلطنا وينضحنا .

– ماتبيع يامنصور قنطارين قطن صيفي .

– ياستي ما أنا هابيع عشان الكيماوي .

– بالمرة يمكن ربنا يوسعها .

– هايوسها منين .. الحکاية أربع فدادين .

– اشتري ابنك يامنصور بقنطارين قطن .

– اشتريه بانظيرة بخراينا !!

– ياخوية ربنا يخليلك ويابو سلامة ياما الجمل كسر بطيخ .

– ويام سلامه ياما البطيخ كسر جمال .

... وفي هذه الليلة نام عم منصور مستلماً مهزوماً ، يستعرض في ذهنه أسماء الناس الذين سببوا لهم القطن بنصف الثمن نظير تأجيل التسلیم حتى جنى القطن ، وبرزت مقارنة في دماغ عم

منصور على أيام «المرحوم أبوه» لم يكونوا يعرفون قطن صيفي ، كان الواحد أن احتاج قرشين يستلفهم من جاره ، ويرجعهم له قرشين ، لما ربنا يفرجها ، أصل الناس في البلد . كانت أيامها كلهم فقرا .

.. عم منصور ، كرجل فقير ، مكانه في المسجد أثناء الصلاة ، في الصنوف الخلفية ، فجلباه البالى المتسع ، لا يسمح له بعشر نصفه بين وجهاء القرية في الصنوف الأولى التي تلى الإمام مباشرة ، وهو لا يتذكر أبداً مع أنه يمارس الصلاة منذ أكثر من عشرين سنة أنه صلى في الصنوف الأولى ، لكن هذه المرة في صلاة الظهر ، خرج الرجل على قواعد البروتوكول ، ووراء الشيخ القزمازي مباشرة ، أدى الصلاة ، وبعد التحرير وخلافه ، خرج المصلون ، ولم يبق إلا منصور وفصيلة الإمام ، وخدم المسجد ، وتقدم منصور ، على استحياء .

ـ الا ياسيدنا الشيخ .

ـ خير يابنى .. خير

ـ أنا كنت عاوز قرشين لحسن الواد ..

واراد الرجل أن يستطرد في حكاية طويلة ، الا ان الشيخ القزمازي قاطعه :

ـ يا ابني كنت ارجو ان انا اثواب اقراضك ما تحتاج ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول ، من فرج عن أخيه كربه .. وأدرك عم منصور نطته الصافية ان الشيخ ظنه يطلب سلفة ، فبادر موضحا .

ـ أنا عاوز ابيع قنطر ونصف صيفي .

ـ تبيع قطن صيفي ، ابن ارضك .

ـ في حوض الجيزة ..

ـ ارض جيدة ، ولكنني سمعت انك تريده تزويج ابنةك ، فانت ستحتاج لبلغ كبير ، واخشى الاستطاع تسليم القطن .

ـ وأخذ الشيخ القزمازي يحاور عم منصور ..

ـ وعندما خرجا من المنزل كان في جيب عم منصور ثمن قنطر قطن ، دشى آخر ، هو من باب الاحتراس كما سماه الشيخ القزمازي ، عقد شركة في الجاموسة ، فيه ان الشيخ دفع نصف ثمنها ، وان منصور ملزم بالمحافظة عليها ، وعدم التصرف فيها ، الا برضاء الطرف الاول ، وهو طبعاً الشيخ القزمازي الذي دعا لمنصور أن يبارك له الله فيما هو مقدم عليه ، أما منصور ،

فأقلب الظن انه لم يسمع دعاء الشیخ ، فقد كان يستعرض أسماء الفتنة التي شترى القطن على اجل ، وله من استعراضه غرض ظاهر ، هو ان يختار الناجر الذى يتوصى فيه بعض الطيبة ، وامكان انتظاره استلام القطن لعام آخر ، فليس من الممكن ان يتوافر عنده قطن يكفى تسدید الایجار والوفاء بالكمية التي باعها على اجل .. وبدا له ان ليس فيهم من يفضل على غيره ، فكلهم اولاد كلب ؟

واستقر على ان يذهب الى عبد الرسول ، ابن العمدة ، تبقى معرفة ، ويمكن يحتاجه في كده والا كده .

وبعد صلاة العشاء حملت عم منصور قدماء الى بيت العمدة ، ليقابل عبد الرسول افندي ، ولم يمهله عبد الرسول حتى يتم حديثه بل اخبره بأنه يعرف كل شيء ؟ مقدار ماباعه للشيخ القرمazi . وعقد شركة الجاموسة ثم قال مستعجلا :

ـ لكن ياعم منصور ، والجاموسة دي الوقت مش بتاعتك اخويا له فيها النص ، والنصل بتاعك بعنه للشيخ القرمazi .

ـ ابدا والله ، انا مابعتش النصل بتاعي ، دا بس من باب الاحتراس .

ـ احتراس ايه ياحمار ، هو الحسакم عارفة احتراس والا ما احتراشنى ، قدامها في الورق انك بعثت وخلاص .

ـ ياسيدى ربنا يجيبيها سليمة ، وان شاء الله اسلمك اول ما اجمع ،

وعبد الرسول - كناجر - خبيث اصيل ، هو يطلب ضمانا للوفاء ، والجاموسة لم تعد ملكا لمنصور وخساطب نفسه « والمفلس يقلب السلطان » واحتاج منصور الطيب على وصفه بالمفلس ، وقال ان خبر ربنا كثير ، ولم يهتم عبد الرسول ، فقهه كان يطلب فسخمانا لدى منصور لا عند الله ، ثم فجأة :

ـ هم منصور ، انت هاوز تبيع قنطرarin قطن صيفي ؟

ـ ابوه ياسيدى ، قنطر ونصف ؟

ـ اسمع من باب الاحتراس ، تبيع لي الاوضة بتاعتك اللي على الشارع ،

ـ يانهار اسود .. ابيع بيت ابويها ياسى عبد الرسول .

ـ ياراجل اهقل ، دا مش بيع دا من باب الاحتراس ..

وانت بتقول هاتسلم يوم ماتجمع القطن . وساعتها خد كل اوراً فاك .. وفي استسلام وقع بخته او بالحنة الصحيح ، كما سماها هو ، لعبد الرسول ، وقبل ان يضع ثمن قنطر القطن في جيبيه كان قد تعهد بتسلمه عبد الرسول قنطرارا ونصف قنطرار قطن .. وشيء هو من باب الاحتراس ايضا ، عقد بيع الحجرة التي تطل على الشارع والتي يحدها من الغرب فلان ..

... انتفخت اوداج سلامه ، فلن تتندر عليه بناط القرية بعد الان ، ولقد اثبتت رجولته وسيتزوج فاطمة بنت الشيخ عطية ، سيد اسياد البلد ، كما سمعته نظيرة ، والرجل الذي لا يساوى مليما ، كما يرأه عم منصور .

اما الشيخ عطية نفسه عنده تحديد المهر ، فلم يكن اقل من على بن احمد او فلان وفلان ، ويردف قائلا « وعلى كل حال ياشيخ منصور ، كله راجع بيتك » ويرد منصور ، ياشيخ عطية ، نسبك كفاية ، هيhe الاصول ضاعت والا المسالة فلوس بس « واثمر رد منصور فقد قنع الشيخ عطية بما يحمل منصور من فلوس هي ثمن مباعته من قطن ، وبقيت اشياء صغيرة ، كام اقة بطاطس ، وكام رطل طماطم ، وكيلة رز ابيض ، مطالب كلها بسيطة ، يقدر عليها عم منصور بلا ارهاق اما الشيء الذي يعجز عنه حقا ، فهو اتعاب المأذون وحمل الرجل الهم ، فسيرجع مرة ثانية الى الشيخ القرمazi فهو بلا حسد ، امام وخطيب ومن ذوى الامالك وتاجر ومائون القرية السعيدة ، ومرة ثالثة باع منصور رباع قنطر قطن ، ولم يقبض من ثمنه هذه المرة شيئا يذكر .. وقبل ان يمر أسبوع المهلة ، كان بيت الشيخ عطية يقع بالناس الرائعين الغادين في وسط الدار اما عليه القرية ففي مندرة الضيوف يضيئها كلوب غائم الحلاق ، وفي خارج الدار اجتمع النساء يصفقن وينغنين « ليه يابن عم تتجوز عليه » .. فيריד الفريق الآخر من النساء « بجوز عليكى من وسخ رجليكى .. حتى واغسلهم وانا ارضى عليكى » .

والجميع في انتظار الشيخ القرمazi الذي يحضر على مهل ووقار وقد سار خلفه بعض اهالى القرية يحملون دفتر القسام ودواية الحبر والريشة ، مكتوب عليها بخط مسحون « الحكومة المصرية » ، وقبل ان يبدأ يصر على سؤال فاطمة عن توكله .. ويضع سلامه يده في يد الشيخ عطية ويخرج في شهادة منديلان جديدا ، يفرده

فوق اليدين المتشابكتين ويردد الشيخ مطهه وسلمة كلمات السحر ،
وراء المأذون وحالا يحل الحرام ..

ولا ينسى الشيخ فرمazı ان يتسلم المنديل الجديد ويدسه في
جيب الکاكولا .. وتنطلق الاعيرة النارية ويميل الشيخ فرمazı على
عم منصور .

— مبروك ياعم منصور .

• • • —

الليلة الجاية

الشمس . هناك . على مدد الشوف ، كحفرة مملوقة بالاوالع
المتوهجة .. وهى لقربها ، تستطيع - كما يقول عم زناتى - ان تخطفها
بيدك .. أبو قردان عائد ، ليقضى ليلة فوق اشجار الجميز العجوز
حول قريتنا ، جماعات ، جماعات ، كاثواب القماش الدبلان تحملها
الرياح .. في الحقل ، خرج الناموس من الا دور السفلى لأشجار
القطن ، يملا الجو طيننا كثيما ، ولدغا موجما .. سكك الفيطن
تشهد حركة نشطة . الجاموس والبقر مسحوب الى الفيطن ،
اكياس الدريس فوق الحمير .. عدد السواقى مربوطة بالاحبال
.. نساء راطفال ورجال ساحبون راكبون ، حاملون .. حركة فى
حقول قريتنا .

... الجدع زيدان ممتطيا شجرة الصفصاف ، ويضرب بفأسه
فرعا ناشفا ، وتكاد تسمعه بحدث نفسه « دى مث فدان قطن اللى
هابات له عند الساقية جمعة بحالها ، منعرفش نسيقه »
صوت عم زناتى ، يأتي من الجانب الآخر للدار الساقية ، يحدى
الولد زيدان ، من ان ينكسر الفرع الذى يركبه ، ثم لنفسه « يعني
القطن هايجب ولد .. قطيعة ، والله م بحبيتكاليفه » ثم يأمر
فهيما ، ابنة الثاني ، ان يرمى للجاموسة علقة دريس ، ويتذكر من
رباط العمارة فى الود ، فالليل داخل ، والحمام مشاكس ، كثرا
ما رجع الى الدار وحده ، وتركمهم فى الفيطن يوسعونه شتما وسبا ..
ويهدأ عم زناتى قليلا ، ويخرج من جيب جلابيته علبة السجائر
سمسون ماتوسيان - وفي سره - « والله ياربى ما يكيف » ويفتح
علبة الكبريت فيجدها فارغة ، ويتذكر انه نسى ان يطلب عودين
كبيرت من الشيخ سليمان البقال ، وهو يشتري السجائر ...
ويلتفت حوله بحثا عن فرحتان جاره فى الارض ، والذى سيتسلم
الساقية بعد ان ينتهى هو من رى ارضه ، فلا بعد الا بقرة فرحتان
مربوطة بجوار غبيط الدريس ، وعزال الساقية الخاص به ، او قل

ان بعضه يخصه ، والآخر استعاره من ناس جيرانه في الدار ،
ويسأل عم زناتي ، ابنه فهمي ، عن فرحته ، فيجيبه فهمي .. راح
الدار يتعشى ، ويجيب له كيس ينطفيء به .. ففرحت فلاح واع ،
يعرف جيدا ، أن ليس خيرا من الكيس غطاء ! عند الساقية . في
الجو الملبد بالناموس ، فشعيراته تمنع الناموس من الوصول الى
الجسد ودس ابرته فيه .. وتهتز السيجارة بين شفتي عم زناتي ،
وتنتقل الى اصابعه ، وهو ينادي رشاد ، الذي لا يجيب ، فرشاد
اخبره الخفير بأن الترعة ، ستفيض الليلة على الجسور ، وسيروي
قطنه الذي مات من العطش ، واستعدادا لوصول الترعة ، كوع
رشاد ، بحوار الساقية المجاورة لساقية عم زناتي وشرکاه .. وضاق
خلق عم زناتي بحثا عن ولعة سيجارة ، وزعق في الولد فهمي ابن
الكلب ! يعني مش عارف اولع السيجارة ؟ .. « ساقيتان في البر
ده وساقيتان في البر الثاني وعند كل ساقية بدل الرجل خمسة ..
ومش لاقى اولع السيجارة .. أيام سودة بصحبيع .. مش كفایة
انقطن فات اربعين يوم ماشفش المية .. لما باه بصعب على الكافر
« ثم اردف » ياواذ يافهمي يابن ستين كلب شوف لي ولعة سيجارة
من تحت الارض ، وتمتم فهمي - في سره « اصل الناس لما بتكر
بتخرف » واتجه فهمي الى البر الثاني للترعة ليسأل عن كبريت ،
فيه ان الولد الفطن ، قبل ان يخرج من قلب الترعة الجاف ، شم
رائحة ما ، هي بالتأكيد رائحة الشرب الناشف يمتص سيل الماء ،
وحانت منه التفاة ..

فشاهد الماء مقبلا يتهادى ، ورقص قلب الفتى كما كان يرقص
ليلة ان ابتسمت له سجيدة .. والحق يقال ان رؤية الماء في الحقل
بهجة وفرح .. حتى ان فهمي نسى حكاية الولعة ، وهتف « وله
يازيدان .. وله .. المية جت » وقفز زيدان من فوق فرع الشجرة ،
بعد ان القى بالفاس بعيدا .. واسرع عم زناتي واخرج علبة السجائر
من جيبه .. واعاد السيجارة الى قاعدها ، ورشاد ، الذي داسه
الحمار مرة ولم يستيقظ هب مدعورا ، والجماعة المسكونون في
البر الثاني .. التقروا هم الاخرون ، بشري قدوم الماء واتجه الجميع
الى سوب قلب الترعة .. يتأكدون من صحة الرواية . فالرواية
او صحت وكانت معجزة .. بهذه السوقى الاربع المنحوسة ، تقم
في آخر الترعة ، ولا يصلها الماء ، الا بعد ان يمر على عدد بلا نهاية
من السوقى ، ولقد تحققت المعجزة ، ووصلت المياه تحمل معها

أعواد القش وفروع الاشجار ، وجثتين أحدهما ل الكلب ذلك ان جثث الحمير التي نفقت لم تستطع المياه وهي ما زالت ضعيفة على حملها .. فتاك سيدة اخرى يتحملها عم زناتي وجيرانه ، فالي ان ماء الترعة لا يصل الا بعد ان يشبع منه الجميع ، فهو متى يصل يحمل اليهم شكلة من الجثث - شهادة لله - لا تسر الناظرين .

وعلى الفور ، يدات الجلبة البنى آدمية ، في هذه البقعة النائية ، في نهاية ترعة بلدنا ، يدات العمل ، البهائم سحبت في قسوة وعجلة .. ودارت السواقى واندفعت المياه تشق طريقها الى شجيرات القطن .. وتوزعت الاختصاصات ، زيدان ، الولد الكبير ، حمل الفاس ، وسار امام ماتصبه الساقية من ماء يقذف الحجر بعيدا ، ويقتلع ما في المجرى من حشائش ، يرفعها على حافتي المجرى وتسير المياه مدندة كالغروس ، على دمننة سى زيدان ، الولد فهمى خلاص ، البحث عن ولعة للسيجارة لم يعد من اختصاصه ، عليه ان يمسك بالفرقة ويلف حول الساقية وراء الجاموسة ، فاذا ماتوا نت طرقعت الفرقة على ظهرها محدثة صوتا كانطلاق البارود وتاركة على ظهرها شريطا من اثر الضربة ، ويعاودها مافاتها من نشاط ، وينتباوب عم زناتى من بعيد - احساسان ، الاول ، قضبىه من اجل ضرب الجاموسة ، الثانى ، فرصة ، ان الولد فهمى ، ابنته ، كبر وبلغ مبلغ الرجال . واستطاع استعمال الفرقة ويكاد الاحساس الاول يتغلب ، ويستعمل لسانه في تأديب ابن الكلب ، اى فهمى ابنته ، لولا ان يأتيه ، صوت الولد فهمى يردد « سبع سوaci يدوروا ماطفروا لي نار .. يامنية القلب قل لي .. ازاي عشق الجار ، يبقى النظر في النظر ، والقلب قايد نار ، وتحول الشتيمة الى زهرة مسمومة ، ويذكر عم زناتى ، على الفور ، أيام ما كان في مثل سن ابنته فهمى ، وسمعه الوه يشدو بالكلمات ايها ، ولحقة بكف غليظة على قفاه او قعه ارضا ، وهو يقول له « حتى انت يامفهوس » وتحسس عم زناتى قفاه ، دون قصد ، وقال ، دون ان يلاحظ بلاش ضرب الجاموسة يابن ستين كلب » سبع ضربات تلهفك يا مفهوس » وهبت نسمة قوية ، سلطت عم زناتى ، وسرح .. أيام المرحوم ابيه كان يرفض استلام الارض لزراعتها . عيش الشعير ، علف الحمير هذه الأيام .. الجلاليب الزرقاء .. على اللحم .. و .. و ..

وانقل الى حلم ، الولد زيدان ، خلص رى الارض من الدماغ للراس وينادى ، حل الساقية يفهمى ، حل الساقية ياوله .. ويتقدم هو

عم زناتي ، يقف على مدار الساقية ، يهدوء يوقف الجاموسه ويحل
غماها .. يمسك بالدشيدة ليرفع الناف عن رقبتها .. مخاطبا نفسه
فهمى م نام من زمان ، هم أولاد الايام دى يعرفوا سهر والا شقل ،
الجوزة قطعت نفسها .. وتوظفه ، في رعب ، عم زناتي نفسه ، طرفة
فرقلة فهمى يسوق الجاموسه ، وخيل اليه هذه المرة أنها طرفة مدفوعه
واستيقظ عم زناتي حانقا ، يلعن فى سره هذه المرة ، الولد الغريب ،
وضايقه انه هو الذى نعس ، لا فهمى ابنه .. كما كان .. يعلم .

ومن جديد ، أخرج السيجارة ، وحانث منه التفافه الى البر
الثانى للترعة ، وشاهد بجوار كل ساقية ، كومة نار ، وسحابة كثيفة
من الدخان ، هي بلاشك لطرد الناموس ، ولا يقى من يبيت بجوار
الساقية ليلًا ، من الناموس ، الا نسمات الهواء ، وسحابات الدخان
.. وتحرك عم زناتي بنفسه هذه المرة . يجمع فروع الصفاصاف التى
كان زيدان قد قطعها ، وبجوار الحفرة التى أعدها للنار ، بدا يكسر
الفروع الى قطع صغيرة ، استعدادا لاشعال النار ، وتدخين السجائر
وابداء الملاحظات لابنه فهمى ، ولاقلاق فرحته ورشاد ، شركائه فى
الساقية ، والعزومة على جiranه عند الساقية الثانية ، وربما على
رجال الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى بكون شاي « يسمى للصبح
والنبي ياولاد » ..

ولكن عم زناتي سمع شيئا ضايقه ، هو بالتحديد ، صوت ارتطام
حراف عيون طمبوشة الساقية بما فى البشر من ماء ، وكما تعرف
ست البيت وهى في الحجرة ان جاز الوابور في المطبخ ، قد نفذ من
صوت تشغيرة ، فكل ذلك ، عم زناتي ، عرف ان هذا الصوت له دليل
واحد ، هو ان ماء الترعة قد انخفض ، وان الساقية موشكة على
الوقوف ، وان كمية الماء التى تنزحها الان ، تضر القطن اكثر مما
تصلحه ، حيث ان رى الارض سيستفرق أياما ، بضرر القطن اثناءها
وتتهدل ورقاته ، واسرع الرجل الخير الى شاطئ الترعة ، ليرى
باليعن ما نباء عنه السماع ، وهناك عرف الخبر اليقين م بالترعة من
ماء لا يكاد يكفى ساقية واحدة ، فما بالك ، وهو موزع على سواق
اربع .. ولم يملك عم زناتي وقد تصور مالحق القطن من خسارة ،
سوى ان ينادى بما يشبه الصراخ « ولاد .. ولاد » وتجمع الاولاد على
استفانة البيل ، فهمى متسائلا في خوف عما حدث رشاد وفرحت .
وهب كل من عند الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى ، على صوت عم
زناتى .

... وعندما اجتمع الرجال حول الترعة .. راعهم مقدار التناقض

الارتفاع في منسوبيها ، وبذات التعليقات حزينة ، ساخرة ، شاتمة ، لاعنة ، وكلها منبعثة عن احساس واحد ، الفيظ المكظوم وانتهت التعليقات الى مرحلة اخرى ، الاقتراحات ..

ـ نلم على الفدان نص بورقة ونبعت تلغراف لبتوع الهنديه ..

ـ لا .. وكان المتكلم ازهري خائبا .. منش للهنديه ، لتفتيش الري

ـ هو ده وقت الحبشه ، ياشيخ تابعى الهنديه هي تفتيش الري وتفتيش الري هو الهنديه ..

ـ ياجماعة ما احنا غلبنا تلغرافات .. عملوا ايه ؟

ـ يعني تعمد ساكتين لما القطن يموت قدام عينينا ؟

ـ وهزت الجميع كلمات .. موات القطن ، وتفعد ساكتين ، ونفر عم عيسوى ، من رجال البر الثاني ، نفره من نفراته ..

ـ نبعت تلغراف للحكومة

ـ هي الحكومة هاتعمل لوك ايه ؟

ـ شوفوا ياجماعة الكلام .. هيء الحكومة لازمتهايه ان ماكشن تجيب للقطن منه ؟

واسهم زيدان الذى جاء من ذيل الارض .. بعد ما انقطع الماء عن الوصول اليه ..

ـ ياجماعة وانا تحت فى الدليل .. كت سامع حاجه زى تكتكة وابور

ـ بس .. لا تلغراف ولا حكومة .. مكنة الحاج طاهر ..

ـ عم زناتى لابنه « ياتك الفم .. انت مالك ياواد ومال مكنة العمدة »

ـ الا ماله ومال مكنة العمدة .. ياراجل الخوف من الله واسع ..

ـ هو ان كان الحاج طاهر شارى لك جاموسه بالمقاومة .. هو القطن ان ضاع هاتعرف توكلها ..

ـ ياجماعة عن نفسى .. وكان الصوت لفرحات .. انا مكسور له من السنة اللي فاتت فى خمسة جنيه ، غيرهم السنة دي بستة جنيه ونص واصلهم كانوا شوال كيماوي ، بثلاثة جنيه ، وده غير كيماوي وبذرة السنة دي .. يعني لو أشتكتنى حبيبيعنى الدار ، ولكن وحق شباب سيدنا النبى ماسيبه ياخذ شوية المية اللي جايين لوحده ، واهتر زيدان ..

ـ يسلم يمينك ، ياجار الها ، يله بنا ياجماعة على المكنة نكسرها حتى ، احنا كلنا مجرحين له انا عارف ، ربنا سايبه ليه ده ماتقول ياشيخ تابعى ..

ـ ياواد بلاش جهل ماتعترضش على حكمة ربنا ..

— يله بنجاشياعة .. يله ..

وكانت فأس زيدان في يده فرفعها على كتفه ، والولد فهمي شال فرع سفصاد ، وفرحات فأسه ، ورشاد عصاه أم جلبة حديد في أسفلها ، والتي ضرب بها ذات ليلة قط بريوي ، فانقطع نفسه ، وعم عيسوى فرقته ذات السوط ، وحتى الشيخ تابع طالب الازهر الخائب ، في يده عصاه أم يد معقوفة .. نهايته ، كل من الجماعة شد قبضته على ماقفي يده .. وتحرروا نحو الورد ، تحرك العطاش تاركين الأطفال دون قصد او تدبير ، لحراسة البهائم والقططان ..

— اضرب طلقة في الهوا ياواد ياحسن ..

— دى بندقية الحكومة يا حضرة العمداء ..

— ياتك داهية امال انا عارف انه بندقية املك بهانة ، هو انت يا غفر شاطرين الا في طواجن اللبن وتأاجر الفتنه ..

— اضرب نار ياواد يا حسان .. بس اووعي تصيب حد يا صعيدي تبقى قضية ومحامية ودوشة دماغ ..

ورد عم عيسوى ، هايضرب مين ولا مين يا حاج طاهر ، وأرتبع على الحاج طاهر : انت بتتهم على يازناتي .. والله لا يابع الجاموسه من الصبح ..

وافتاظ عم زناتي « يارأجل هو انت ربنا قطيعة الجاموسه على ساحها ثم لانه » أسكط ياولد بزيدان بلاش شتيمه ..

وتدخل فهمي بصوت ضائع في الهيجة مهددا العمداء ، بأنه سيدبح له الجاموسه قبل بيعها ، وفرحات يقسم بالطلاق أن موته الليلة كوم وتكسر الوابور كوم آخر .. وانطلقت رصاصة في الجو .. وتسلل والد والقى بقريع سنت امام الخرطوم اللى جذب ماء الترعة كله ، وعلا الضجيج ، ولم يستطع الحاج طاهر ان يميز الا صوات ، بعضها يشتم والآخر يهدد .. وغيرة يطالب بتقسيم الماء .. ورابع يقترح ان يقف الوابور وتدور ساقية والشيخ تابعى سباق لوزير الداخلية ولو زير الاشغال العمومية .. والترعة تقف فاصلان بين الفريقين وصاح جدع من رجال سواقى البر الثاني ..

— بس يا جماعة .. هاوزين نتفاهم .. ده برضه حضرة العمداء ، ولكن جدوا آخر ، امسك بحجر وحدد مكان الوابور فى الظلام وبعزم ابيه وامه والنت التي سيتزوجها من ثمن القطن ، وقدف بالحجر .. وكان آخر صوت .. تقطع اسلامك ، وتحطم اشياء صلبة .. ووقف الوابور ..

وتجمع الماء في الحفرة التي امام الخرطوم ، ثم اندفع يشق طريقه
صوب المطاش ، بين فترة همود على الشاطئين .. وتكلم العمدة ..
شاتما الخنازير الذين يعرفهم واحدا واحدا .. وصمت الخنازير ،
وهو لا يعرف من هدد ومن سب ، ومن شتم ، بل هم أنفسهم لا يعرفون
كيف حدث او ماذا حدث بالضبط ، كانوا كعنين انتهى توا من مواقعة
امرأة .. فهو في دهشة واستكثار واستقرار بل وتذكير لولا انه قد
حدث .. حدث فعلا .. وكان قاتلا .. كذلك الوابور الغريب ..
وهم الحاج طاهر ، إن يبعث في احضار الوابور الثاني ، مع
القوانيس والكلوبات تجعل المكان مثل الظهر .. لولا أن قلبه لم
يطأوه من الداخل ..

وفي الصباح ، أضاءت الشمس الحقول .. واصبح عم عيسوى
هو هو عم عيسوى وليس عم زناتى .. وتكتك وأببور من جديد ..
وعند مرود اهالى قريتنا على حقل العمدة لم يصدقا الحكامة
التي مازالت ساخنة ، فقد كان عم زناتى وعم عيسوى وفرحات
يفسحون القناة امام ما يقاده الوابور من ماء الترعة في غيط العمدة !
وعندما تعبا بهم الرؤبة بما يحكونه ، يتلطف بعضهم الى بعض في
سداقة قوية ظاهرة ويقولون : مين عارف أما ييجي الليل هايحصل
ايه ؟!

الليل .. الرحم

.. الظلالستة عشر تضفت وجه الارض في قبات متلاحة ،
نقيلة ، تاركة خلفها صفين من الاقواس الهلالية .
سلاح المحراث يشق سطح الارض . قبل أن تندمل شفيرا الخط .
الشقوق يستطع وسطه سرسوب منتظم من حبات الدرة فيلتهم عليها
- كالرحم - بتهما ميلاد جديد .

كف عم الوهيدى اليسرى تمسك بيد المحراث خشية أن يسینع
أعمق من العمق الذى يريده لانبات الدرة . يمناه تضم أحجلا طوبية
تنتهي الى آذان بقرتین سوداون ، يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى
الزمان والمكان ، الى نسب عم الوهيدى . بالاحوال الموصولة يعيىد
الرجل البقرتین او احدهما الى الخط اذا ماعن لايهما ان تعرف
عنه .

على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقلة تلسع - عند اللزوم -
الجلد الاسود الغطيس ، وهنا يبذل العجوز مجهودا منتبها : ليحفظ
توازن العمق والاستقامة للمحراث ، وليشرخ ظهر الحيوان بالسوط ،
و قبل ان يفلت منه واحد من خيوط العملية ، يرتفع صوته مخاطبا
واحدة من البقرتین يميزها بشدة ودودة من اذنها .
- لا .. ارجعي ..

وترجع البقرة بعد ان تنفس رأسها نفستين : علهمما تململ او
مشروع تمرد مضى عليه ستة الاف سنة ولم يتحقق ، على اتهما -
النفستين - لا تخوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى
حزين .

على هذه الارض نسمارعى عم الوهيدى جاموسه المرحوم ابيه ،
كانت الارض هيشة ، تقطنها اعواد الغاب الرفيع وأشجار الطرفة
والسمار ويقرش سطحها حصى من النجبل والحلفاء ، وفي العوافي
شجيرات السريس والجلاوين ، ويركك دائما عمق اصبعين من الماء
يسمع لسمكة او ضفدعه او ثعبان مائى ان يعمر بالحياة سطح الهيشة
.. ويحار العجوز ، الان ، كيف ان الاباء الجبل تركوا ارضا واسعة
كمهذه هيشة ، مجرد رعن الجاموس الاعجف والبقر الناشف . لم

يقترب بيته وبين نفسه ان الأرض يفصلها عن البلد مشوار طويلاً .
كان صغيراً لا يستطيع ان يرفع مقطف السباح الى ظهر الحمار
يوم تعارك مع الواد بركات ابن ستم . يومها أتلم العيال - تاركين
البهائم تنحد اوراق النجيل . خلصوا رقبة بركات من قبضتي
الوهيدى « يقوله روحى لى ياهوه » ..

- كانت الأرض دى كلها هيشرة ياسيدى الوهيدى ؟ - السؤال
من امرأة ابنة عبد الشاطر . مناسبة من تلك التي ينتظرها عم الوهيدى
ليفء عليها مما رأه بعينيه هاتين .. البلد ، اكوام السباح ، الدور
التي كانت تشفى بالرجال والخير وصفصفت على امرأة ، بيوت عائلة
الاسوالم ، التي سمع من أبيه أنها قامت كالبنات الشيطانى ، أسماء
الصف الطويل من نظار الوقف . لكن الوهيدى - اليوم - لا يصلح
لاسترخاء المصطبة ، ولف السيجارة ، وولعى يابنت عودين حطب فى
في الطاجن ، وهانى كنكة القهوة وفنجان البشة ..

التفت الرجل الى امرأة ابنته ، الجمامه المنبسطة التي استأثرت
بتفاصيل الوجه .. مطلة . تجاهل السؤال عن تاريخ الأرض . استفسر
عن كمية تقاوى الدرة المتبقية ..

عندما استدار المحراث يشق الخط الثاني كان عم الوهيدى قد
قرب على الانتهاء من حرش ارض الهيشة وتحوبلها الى حقل ، طاوبا
دون قصد صحفة ربما هائنة ورخيصة من حياة الهيشة ..

ادار البهائم .. في وسط الجسر الذى اقامه السيد أبو دراع ،
سلط عم وهيدى سلاح المحراث . شخل بالفرقلة . الاظلاف غاصت
في الأرض لترفع الحد بين ارض عم الوهيدى وساحل السيد
ابو دراع ..

من وسط الهيشة التي غدت حقولا ، وفع عبد الشاطر ظهره . كان
يعالج بصرير خلع جذور الغاب . قبل ان يتحنى لمح المحراث . البقر
يتعرث في شق الحد .

- واد .. واد يافتح الله .. على الطلق ابوك اشطر رجل في
البلد .

فتح الله لا يرد . الشغل لم يدعكه . فلاخ خفافي . ظهره يكاد
تنكسر نصفين . مع انه يعمل في ارضهم لكنه ينتظر غطسوس
الشمس . على انه - فتح الله - حقيقة لاتهزه صفة الشطاره ،
في أبيه بالذات ، ومن أخيه عبد الشاطر على وجه اخص . في اعماقه
ان اخاه عبد الشاطر - بشعره الاسود الهبائى الخشن يغطى جسمه

ورأسه ووجهه ، بكلماته القليلة المتقطعة - جنس آخر . دون ان يشرح عم الوهيدى فكرته من ضم قطعة الارض التى يزرعها السيد ابو دراع ، فهم عبد الشاطر كل شيء . ليس بالتحديد فهم ، احسن الفكرة ، كالجسم المقرر يحتمى بحجرة دافئة تلفحه كل حرارتها . اضافة ساحل السيد ابو دراع تخلق حقلًا مربعا يستهوى الشهوة والفتنة فى روح عم الوهيدى ، كما تستهويها فى روح ابنه عبد الشاطر ، الوهيدى الثانى .

عبد الشاطر لم يتذوق ما يمكن ان يسمى معارضة أخيه فتح الله لفعلة أخيه . عبد الشاطر لا يدرك اتياً ما يشكل دفاعاً عن فعلة أخيه . اراده أخيه سقوط المطر ، كموت طفل صغير .. اللهم لا اعتراض . - جاتك الفه ياد يافتح الله .

احسن عبد الشاطر حيود فتح الله .. تضائق .

- واد يافتح الله .. اقولك .. والله .. ما انت نافع . امسك عبد الشاطر بذقنه ، تقطيعها ابر الشعيرات كجلد القنفدة . الخط الثاني شقة عم الوهيدى فى ساحل السيد ابو دراع . حامد لمح السيد ابو دراع مقبلًا جرياً قاصداً عم الوهيدى . - حوش ياعم عبده !

قبل ان يصل السيد ابو دراع الى عم الوهيدى كان سوط الفرقة قد لف حول رقبته ، وقبل ان يقذف السيد ابو دراع السكينة الطويلة ام حدين والثى يربطها دائمًا على اللحم لصق فخده ، كان عبد الشاطر قد احاطه بذراعيه من الخلف . كانت فأس قد هوت على راسه . وانبعثت نافورة دقيقة من دم احمر . التقت عيون فتح الله وحامد . مذهولين كل سؤال الاخر مرتعباً .

فلك عبد الشاطر ذراعيه . سقط السيد ابو دراع . ابن الليل .

اجال ابو دراع فى من حوله من الرجال عينين مفبشتين . رآهم .. لانسب اندهكسهم على انسانى عينيه ، علها صورة قديمة تخيلها وانبعشت من داخل مخه كما انبعثت على طرف لسانه او من مراكز النطق من مخه جملة اعدها قبلها .

- معلمتش .. حزاة اللي يعيش نعجة بين الديابه .

- ٢ -

فتح الله تنقله الخطوات الحائرة . الليل يقارب ان ينتصف . فى عينيه الظلام رفع الفاصل بين البلد والحقول ، بدت له الجهة

كأنها قطعة بلا نهاية من السواد ، الدور كأنها نامت ، الكلاب على السطوح
وفي العبارات تتناوب النباح .. تترصد الغرباء والذئاب ويسيدنَا
عزرائيل الذي يمتص ويقبض الأرواح . المفارقات انطلقت من عقالها
تحت الأرض . القطط والكلاب والارانب التي تنسل من اركان
البارات ومن فوق اكواخ السباح والتنفس الذي يسمع ولا يرى
مصدره .. حقيقتها في يقين فتح الله عفاريت متخفيه . في القاعات
المدققة ، الرجال والنسوان والعيال في ساعي نومه . على المصاطب
المسطوحة ، على قباب الافران ، على الحصیر ، على قش الارز ، المهم
ان عيونهم اشتقها النوم ، واستسلمت اجسامهم للراحة . خارج
الدور لا حياة لغير القطط والكلاب والغباريات والذين تعمقت دمائهم
ولم يصاحبوا الفراغ في استسلامها للنوم مع غطسة الشمس .

.. من خلف جسر المصرف انحدرت عصبة من الرجال بندقية
مبيزة معلقة في كتف كل منهم . الجنالب مقروظة عند الركب .
ينساؤون لا تحس بهم النسمة نفسها . افترضهم تلب عم السبخاوي ،
تشتمهم بصبع بذيله . تسلقوا السطح . سهل واحد منهم انظرانا
ان ينادي عم السبخاوي . البر امان . اعطي الرجل الاشارة .
هبط الآخرون . كوز الشاي على قوالع الدرة المشتعلة في الطاجن .
جوزة نحاسية صفراء سجحت . مع المغسل تحرق تعامير الحشيش
لذا التحفظ على اولاد الليل . المطاردة - رغم كل امان - دقات
قلبيهم . عم السبخاوي . حغير الحكومة القديم لم يفته قلق فيوفه .
قدم لهم الفرسب . فتح الله بن عم الوهيدى . فتحوا سيرة السيد
ابو دراع . حزن بين ان يكون عميقا او ملوفا - يركض على اوجه
الرجال - ايدهم ان القتل قدرهم . تطاردهم عقيدة ان من قتل
يقتل .

في انتظارهم الطربيل للخاتمة يقتلون اذ يقع واحد منهم . الحزن
ليس من اجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم ، وتحتفق ، عم
السبخاوي - هامش من هامش وحال الليل لا يحس عمق كربهم .
شد واحد منهم نفسا من الجوزة . طرد الدخان من منخاريه كابندقية
ام ووحين . وجه السؤال الى فتح الله .. من قتل ابو دراع .
فتح الله ماخوذ . بدا له جلاؤه من الرجال صورة خرافية لابي
زيد البلاي سلامة ، الوزير سالم . الصور البشرية تملأ ملامحهم ،
اكثرهم اولاد ليل ، لا ينامون في المقرب مع الفراغ . خال دعوهم
خلوقه واقفة لا تعرف الانحناء لاحد . يستيقظون مع حلول الظلام .

الشاطر ظبب ، راجل فيط ، يحب آباء موت ، يطلق الشفل في الفيط من تحت الأرض ، قبل الفجر ديله في أسنانه إلى الفيط ، راكب حمار ، ساحب بقرة ، الفاس في يده كالسيجارة في يده ياعم سيد ، يحب طين الأرض أكثر من حبه لحريمه ومرة كان يتغدى وانسل عود برسيم مع اللقمة ، لم يرمي ، ضحك ، يواواد يافتح الله كل خلقة ربنا ، البنى آدمين والبهائم والرسيس والبرسيم .. فكرته الثابتة أن فتح الله خسان ..

هانم - في غندرة - تلقى تحية الليل على الرجال . الحديث الدائير عن قتل السيد أبو دراع . فتح الله ، صدقوني ، لم يقتل السيد أبو دراع ، الذي قتل هو ولد شفال عندهم . حامد . فتح الله يؤذيه من دفاع هانم عنه وصف حامد بالشغال . حقيقة حامد ليس ابن عم الوهيدى ، ليس أخا لفتح الله أو عبد الشاطر ، هو يعمل في الفيط والبيت ، هو منهم أو ليس منهم مسألة لم تطرح على ذهن فتح الله ، لكنه لم يخطر بباله أن حامد شفال . وقف عم السبخاوي ووقف فتح الله . الصينية حملها من على رأس هانم . بهدوء وضفت امام الرجال . على طرف المصطبة جلست هانم تعد الشاي . دعت فتح الله إلى مشاركة الرجال الأكل . عاودت تأكيد اتهام حامد بقتل السيد أبو دراع . عم السبخاوي وقد فتحت له أبنته الطريق اندفع . حامد هو القاتل ، ولد ضائع بلا أصل ، بلا فصل ، ولدته امه في بيت الحاج وهيدى ، ماتت وهو مفعمون ، فتح الله ابن ناس . عم السبخاوي يسترضي انته هانم بمدحه فتح الله . فتح الله لم ترقه الطريقة التي عرض بها الموضوع امام الرجال . فهو لا يعرف من الذي قتل . حامد سواء كانت فاسه هي التي ضربت أم لا ، واحد من العائلة . سيم على أن يدفع عن حامد الاتهام المؤكد .. الجراة لا توايه . سكك .

الصمت الذي يلف الجهة كلها امتد إلى مصطبة عم السبخاوي داخل القاعة ، شخير عيال عم السبخاوي ، سمع من حجرة محاورة ، شلال الصمت . طلب احدهم من فتح الله ان يستأذنهم . تدخلت هانم من القاعة الم Razan . خفت ماظنته اسأة إلى فتح الله . ملعون ابواهم ، ليس في الامر سر ، وراءهم سرحة ، عينهم على مواثي واحد غلابان سيسرقونها الليلة . نددت بالرجال . فتح الله ليس غريبها عن بيت السبخاوي ، مع ان الفوء ضعيف او منعدم فقد لم

فتح الله سنة من أسنان هانم مقطاة بالذهب البراق تلمع خلف شفتيها.

- 7 -

في الصباح اذا انكرت هاتم ان فتح الله ينام في القاعة الجوانية لم يكن قصدها ان تكذب على الرجل الكبير الذي تهبيء نفسها لان تدور في فلكه . خوفها من جهامة عم الوهيدى الجمت لسانها . تخل عنها تفاصحها . فتح الله بالداخل بين اليقظة والنوم خمن تقريرا ماحدث ، ثم قرصه صوت رشاد بن جابر افندى سال هاتم عن اخواتها . رشاد افندى بثست اولاد ستين الكلب . يتساءل مستنكر الا يسر حون الى الفيظ دون ان يوقظهم من النوم عشرین مرة ، ويسوّقهم من الدار الى الفيظ كالحمير .

تدخل هاتم القاعة لا تدرى كيف تتحدث الى فتح الله تربى ان
اودى ما شبه الاعذار . سى فتح الله عارف . رشاد بن جابر افندى
كامله . ناس لسانهم طويل . ملعونه لقمة العيش التي تدل الناس .
السيد أبو دراع هج من وشمهم . هاتم اقترح على أبيها ان يقطم
علاقاته بجابر افندى . وأن يعمل اخوتها فى اراضى الفلاحين . كله
عمل بالاليومية . عم السيخاوي اتهم ابنته بنكران الجميل . العمدة
ياهاتم خيره راكتبنا ، شغل السيخاوي خيرا فى الحكومة ، وانتقامه من
بين الخففاء ، كان تابعه كظله . هاتم تسقط هذا الجزء من دفاع ابيها
عن جابر افندى . يحس فتح الله ان فتاته محاصرة . لا يهم ، الهم
انت ياهاتم ، بعدك لا شيء يهم ، امسك بيدها . تفحص وجهها .
فيه من ابيها سمرة ، من امها صفرة باهتة . احس به لاما نظيفا .
تطل من أعلى عينان . اطال فتح الله التحديق . النور الساقط من
فتحة السلم على صحن الدار منعكس على وجه هاتم . العينان
سوداوان . الحاجب رفيع . الرموش سوداء طويلة . الرموش تتلاقى
وتتفرج . الكحل الاسود كان قد صبفها فى الصباح الباكر قبل ان
يستيقظ . سأها هل تعرف ان عينيها حلوتان . هاتم بين ان تقف
عند الحديث عن حلاوة عينيها ، تخرج من الحفرة التي اوقعها فيها
ابوها واخوتها وامها ، وبين ان تطلب منه ان يمر سريعا . عليه ان
يعرف ان فتاته مؤدية . البنت ياسى فتح الله بأخلاقها . فتح الله
يرؤمن على الحكمة التي أقت بها هاتم . امسك بيدها . تأمى اى
عينيها . سأله هل حقا تجبه . هاتم تفترض ان يرحل بها فتح الله
بعد الزواج الى بلاد بعيدة . رجل الليل بلا بيت لا يملك اى

مخرج للسرحة لا يعرف مني يعود . وقد لا يرجع أبداً . هاتم ..
إن المليل رجل .. رحم الله سيد أبو دراع .. لم يعجبه حال عائلة
السموالم مع أهالي البلد . هاتم تعود يشدها خوفها . أنت فين ياسى
فتح الله واتاً فين . هو يكره منها هذه اللغة او هذه الكلمات . هي
ذلك بالكلمات تخفي بها رفضها متعللة بالفتن والقرف . الناس اولاد
قصعة . ضفقط على يدها . تأوهت ، سجنت ذراعها . خنقه صونها
الناعم المنقم الساخن . كلسعة ضوء القمر . ضفقط يدها . وكبها
غضب مفاجيء . نشجت . انفجرت باكية . ليست واحدة من ايامهن
فقيمة لكنها تعانق على شرفها . الحال احسن . ارتبك . تذكر
الاحفظة التي فوجيء فيها برأس السيد أبو دراع مدشدة بفعل
فاس . فاسه هو . فاسه ام فاس حامد .. بتحسسه الحابي ، هاتم على
حق . المرأة على غير ذ وجها حرام ، لم لم يتزوج السيد أبو دراع ..
حرام ام حلال - ماذَا كان سيقول السيد في هذه المسالة . بارتباكه
تقدم يعتذر اليها . هو يحبها . لا يفرق بين نظرة تمسح وجهها وصدرها
ونبديها ، بين دقات صدرها هو كالطبل اذ يسمع صرتها وبين يده
تضفقط يدها . خالتى نرجس فتحت باب الدار . عقب الباب المترک
على فطمة مخر بلطف فوقها . بزريق . مسحت هاتم دموعها . لم
تنظر اى فتح الله لكنها كانت تراه . حدثته بصوت رائق ؛ صوت
لا اثر فيه تذوق او نشجع او وعظ او ارشاد . عليه الا يزععل . هي
الاخري . صوت خفيض - تحمه .

الام حيـة فـتح الله بـحـفـاوـة . سـيـدة تـربـت فـي بـيـوـت الـثـرـاء . بـيـت
جابـر أـفـنـدي . سـرـها أـحـسـاسـها بـقـيـمـة أـن يـكـوـن لـلـإـلـاـسـان أـرـغـبـ يـمـلـكـهـا
وـجـامـوـسـةـ وـبـقـرـةـ وـعـلـى سـطـحـ بـيـتـهـ كـوـمـ الـدـرـةـ . شـرـفـنـاـ يـاسـيـ فـتحـ اللهـ
بـيـاـبـشـ بـيـوـتـ رـجـالـ وـلـاـ كـلـ الرـجـالـ . تـبـحـثـ عـنـ كـلـمـاتـ تـرـفـعـ بـهـاـ الـحـاجـ
وـهـيـدـيـ عـنـ حـضـرـةـ الـعـمـدـةـ . قـدـمـتـ اـرـفـقـةـ سـاخـنـةـ لـفـطـورـهـ . إـلـىـ جـانـبـهـ
عـلـىـ الـمـصـفـلـةـ جـلـسـتـ هـاـنـمـ تـنـفـخـ فـيـ الـقـوـالـعـ تـشـعـلـهـاـ فـيـ الـطـاجـنـ . تـعـدـ
الـشـاـيـ . فـتـحـ اللهـ لـاـ يـحـبـ أـنـ يـشـرـبـ كـرـسـيـ مـعـسـلـ عـلـىـ الصـبـحـ .
لـيـسـ كـيـفـاـ مـنـقـوـعـاـ . أـيـنـ هـوـ مـنـ أـيـهـاـ السـبـخـاوـيـ ، الـكـيـفـ الـلـذـىـ
سـاحـبـ الـحـرـزـةـ قـبـلـ أـنـ تـولـدـ هـاـنـمـ وـقـبـلـ أـنـ يـتـرـوـجـ الـاـمـ نـرـجـسـ .
يـمـسـكـ الـقـوـالـعـ الـمـلـتـهـيـةـ بـيـنـ سـيـاـبـتـهـ وـأـيـهـامـهـ . يـرـصـهاـ عـلـىـ الـعـسـلـ .
يـضـغـطـهـاـ بـطـنـ اـيـهـامـهـ . أـحـسـتـ هـاـنـمـ بـوـضـوـحـ باـحـتـقـارـ لـفـتـحـ اللهـ .
أـسـتـصـفـرـتـهـ . لـيـسـ وـجـلاـ . اـوـلـادـ الـمـيـسـورـينـ تـنـقـصـمـ الرـجـولـةـ دـالـماـ
أـحـسـتـ بـعـقـمـ بـنـقـيـصـةـ لـاـ تـفـتـرـ فـيـ اـخـلـاقـ فـتـمـ اللهـ . إـلـاـ سـتـفـتـمـ الـيـوـمـ

يكرس معمل . فتح الله لا تذهب ظنونه ولا يصدق - لو سمع -
ان تكون هذه معتقدات وليفته . هذه بالذات يعدها مزيفه تقريره من
الناس الذين يكره تعاليمه ؛ عائلة السوالم ، الذين لا يشربون الحشيش
اولا في الليل .

حرشنى ياسى فتح الله . استفائه من السطح واحد من اخوات
هاتم . حاولت ان تمنع فتح الله من الصعود الى السطح . صعد .
اخوانه وليفته الذكور الثلاثة روسهم مكتشونة في الشمس ؛ تبعقها
فتلال من الشعر . الجلد حمراء ، بيضاء مشقوقة ، ينز منها
الدم . ليس دما احمر ساخنا كالذى اتبثق من رأس السيد ابو داود .
دم اصفر ، ابيض ، دم دهنى . امراة غريبة . ليس من البلد
تجالس ناهضة على قرحةها ، تشد بقوه قطعة رقيقة من جوال سعاد
كيماوي . طبقة القطران الاسود الرقيقة التي يشمع بها الجوال
من الداخل ملتصقة بجلدة الراس المتقبحة الجرداء . المرأة تشد
قطعة الخيش بقوه . قطعة الخيش الرقيقة تتمزق مرة بين يدي المرأة ،
مرة يطلق الولد صرخة استفالة . شريحة من الجلد المعيوب تتمزق
ملتصقة بالخيش . خالص ترجس ممسكة بكل قوتها . هاتم ركبها
عفريت . شتمت امها . لعنت الولاد واباه . لعنت اليوم الاسود
الذى ولدت فيه في هذا البيت . سجحت فتح الله من يده . مدت
سبتوب الله عليها من هذه الدار النكدا . رضت كرسى معمل . مدت
فاغة الجوزة الى فتح الله . لقها وشد نفسا عميقا كما لم يفعل من
قبل . يقاوم رغبة في التقيؤ . احس الحرج مرتسما على وجهه
هاتم . حاول ان يخفف عنها . احس بها تزيد ان تكى او ان تفجح الله
امسكتها من يدها لصحته الى داخل القاعة الجوانبة . تعرف ان البلد
كلها تصف اخواتها بالقرع . لحظة تعيسة من حياتها حقا ان تحضر
المداواة ل تعالج اخواتها وفتح الله بالدار . لم تصل الى ذى العلام
بواقعة ما يختلف عن معايشتها ، باحساسها ان علم فتح الله يقزع
اخواتها شيء ورؤيته للقراع معروضا تحت اشعة الشمس شيء آخر
لحظة ضعف ساحقة تعيسها هاتم . تزيد ان تفعل اي شيء تشعل في
البيت حريقا . تطرد فتح الله . احسست نحوه برشبة في الا تراه
.. مند عرقته وهى تسير على جبل .. تخفي عنه حياة ابيها وامها
وأخواتها . من اجل ماذا . هو لا يستحق . ولد مفهوس ، ولا خير
فيه ؛ ويسرق من ابيه . من لا خير فيه لاهله لا خير فيه للناس .
انها تكرهه . تكرهه . ملعون هذا القاتل المجرم ؛ قاتل كابيه الوهابى

الملعون قتل صاحبه من أجل سمكة . اسمع يافتح الله .. السباخاوي
يقوم باخفاء الواشى المسرورة . عليك ان تعرف . صاحب عملية
الافضاء او التفضفض رغبة بارزة ان تعرى هام امام فتح الله .
فتح الله تشفله شفقة عميقة نحو هام . لم يلتفت . توالت داخل
هام عملية الافضاء مع رغبة في ان تخفق فتح الله ، تخنهق بيدها ،
بيديها تضفط رقبته ، وتلتصق به ، تحضنه أمسكت بيده فتح الله .
ضفت دون ان تحس . ! كانت تبحث عن كلمات ممطولة لصياغة
الخبر . مازالت حالة التقى تشفله . رغم ذلك شدته جدية قاسية
تشكل ملامح هام وتهزها . انفراج واضح بين شفتتها . وفوجيء
تماما . هام تدس غابة الجوزة وتطيق عليها فمهما . نفثت من منخارها
سهمين حاسمين من الدخان الكثيف . توج دخان متسلما بين فمها
والهواء الخارجي . عندما وصلت هام الى ان البهائم المسرورة يخفيها
ابوها في دوار جابر افندي ابو سالم ، حضرة العمدة ، كانت قد
انتهت من قذف الخبر كانت قد تخلصت من توتر عضلى شد داخلها ،
لم تدر هي الاخرى سببها ، بعده احست بالضوء يغمر المصطبة .
بارتباح ، حب الهى لفتح الله ، للجوزة ، لابيها ، لضعفه ، لامها ،
لآخرتها القرع ، ليس ذنبهم ان ربنا خلقهم قرعا ، حنين نحو دارهم
بطاقة الباب فى سقفها ، القاعات ، المصطبة ، الباب الخشبي ،
السلم ، جذع النخلة المنجور ، البلاص القاعد بجوار المصطبة ،
الفرن ، الكانون . التفت الى فتح الله . ولد طيب ، برىء ، لا يجرؤ
ان يدعي فرخة ، هجر اباه ، دارهم ، يتحدث عن امه كطفل ، لم
يرها ، ماتت قبلها ، يحب حالتها ، ماذما تستطيع ان تقدم له ، كيف
تفديه ، عليه ان يعود الى ابيه ، الى دارهم ، لا يحب أن يحرم من
خير ابيه ، لا يحب ان تكون هي سببا في شقاله ، عليه ان تمنعه
ـ بعد ذلك ـ عن سرقة الحبوب من سطح دارهم عليها ـ بالذات ـ
ان تفصل بينه وبين رجال الليل الاهيل .. يريده ان يكون منهم انهم
مساكين وحياتهم ليل ليس لهم بيوت يملؤها الخير كبيت فتح الله .
سألها فتح الله لم هى سارحة . أفاقت . فتح الله .. يحبك ..
صدقنى .. قلبي أبيض .. مايشيشى من حد .. حتى عيلة جابر
افندي .. ياسلام يافتح الله .. ياسلام ، قاومت رغبة مخدرة للنعاس
المت بجسدها كله . احس فتح الله كربا يملؤه . لها ان تحب كل
الناس كل شيء الا عيلة جابر افندي ، الا عيلة السوالم . هم ان يسألها

بدت له عليهية بأسرار الليل . هاتم . من قتل فهيم بن زينه كيف؟
لا تذكرينه فهيم الذي القى السُّم لواشى العمدة وهي في الدوار .
— ٤ —

بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة امام دكان الشيخ سعيد قده
بلاد الحرارة، بتخاطفون سigar، يرصنون كرسى معسل ، يتراهنو على
كسر اعواد القصب بسيف كف اليد، يتراهنو على اكل قطع الصابون
وشرب الجاز وسبب خفى آخر ، التعليق على نسوان الحارة عندما
تمر عليهم في الظلام . بعد الطبخ والاكل وتنويم العيال تتنادى جارات
الحارة وكل جماعة قافلة صغيرة تأخذ طريقها مارة بمصطبة دكان
الشيخ سعيد الى التلول تفك تكاله السروال والجلسات متقاربة الاسرار—
هي الاخرى — حمل ثقيل احتجزتها يوما بكامله التخفف حالتهم ،
تنتهي الجماعات بعد ان يتخففن . عند العودة ليس شرطا ان تكون
كل جماعة هي بذاتها التي خرجت ، يعاد تشكيل الجماعات ، التلول
حول البلد ملك للحرير في الليل .

فتح الله يداور ابن خالته . يربى ان يطمئن على عودة هاتم من
التل . كل عريض يرقب عروسه من رحلتها الى تلول السباح . لم
تعد هاتم . ان خالة فتح الله تشهده ، ولد عفريت هو الذي كشف
فتح الله . قم يافتح الله شوف خالتك . القائب حجته معه . تعلمها
المرأة ، لو ان لها الفرض ، وهي نائمة الى جانب زوجها .

— ازيك يا فتح الله . لمة الجاز معلقة على مسمار بالحائط . على
المصطبة تمدد الاولاد . الخالة قبلته من خده اليمين مرة ومن الخد
الآخر مرة . احتضنته . ضمته الى صدرها . امرأة فارعة ، عجوز
ماسكة حيلها .

ازيك ياحنة عيني .. عاتبته . الا تراه الخالة الا بمرسال . لفت
من بعيد . سالتها عما اشتفله في الفيط . ففتح الله لم يستقل .
تابعت لها . استفربت ، الصحة متوعكة ياخالة . وهي تعلم انه
يتهرب . تنزعج حقيقة . سلامتك يافتح الله ، الف سلام ، خالتك
تحمل عنك . نسيت أنها كانت تداوره لتصل الى خلافه مع اهله .
تستقصى نوع تعبه .

الف بعد الشُّر عنك . تتعب يافتح الله وامك لا تعرف . ضمته الى
صدرها . طبقيت على كتفه . من يذرى ربما لم يتناول عشاءه .
قدمت من الموجود . صحن الجبنة القديمة مدهوسة في المثل ، الافت
واعواد السرير . ففتح الله تغير . الخالة رأته قد امتصه الهوا .

اندا ياخالة والله انا حسان . آه يافتح الله ، ياحبة عين امك ،
هل تنكر ، عيان وتنكر ، لست اقل من امك ، فتح الله لم يمنك
نفسه . لو ان الناس كخالته . بكنى . قبليته على خديبه في طرقة .
ما عاش من اتكى فتح الله . لا تعرف تم اعزك يافتح الله . سمع
اسم امه . نقطته خالتة وكانها تبسم ، كانها تصلى على النبي .
لا يجب ان يبكي فتح الله وخالتة على ظهر الارض .

فتح الله لا يود ان يعود الى دارهم ، لا يعرف السبب بعد يوم
حكاية السيد ابر دراع .. كان ولد شهم ياخاله .. فتح الله لو كان
يدرى ما سيحدث لمن ، هو نفسه ، اباه عن ضم قطعة ارض السيد
ابو دراع الى ارضهم .

كان فتح الله يقيم جسرا . انتبه على زعقة حامد . ابو دراع كان
مقبلا جربا . تعلم فتح الله . تمنى لو انه اعترف لخالتة انه هو
الذى ضرب . ليلاتها حاول ان ينام . تلف في رأسه المشاهد . صورة
ابو دراع مرة جالسا مع ابيه يرد على عم الوهيدى بلا خوف ، في
شمامه . على الحرام ياعم الوهيدى انا والبندقية في يدي ماتطرف
عينى لجابر ابو سالم ، ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة في عيني قش ،
لا الارض ولا الميصة تهز طرف عيني .

فتح الله لم يستطع ان يوفق بين ابو دراع الشهم وبين ابو دراع
ملقى على الارض ، على وجهه فرع ، ذلة ، انكسار ، في لحظة لم
يكن هو السيد ابو دراع ، كيف . ترتسم قطعة الارض الصغيرة .
هل كان عم الوهيدى يعلم . الاكيد ان لا شيء كان يمنعه من ضم
الساحل . وفيهم بن زينة . ليلتها طرق فتح الله حجرة عبد الشاطر ،
كان نائما استيقظ ، انت يافتح الله مدلع ، ولد خسان . لو ان
فتح الله تعب من الشغل في الفيط ، لواتاه النوم وهو عائد على ظهر
الحمار ! عبد الشاطر يخلق في الفيط الشغل من تحت الارض .
نصيحة عبد الشاطر ان يعود فتح الله لينام .
كان الشارع ساكتا ، مظلما . لم تكن القرية موحشة هكذا ابدا .
الخالة تقاطع . نهايته ياخالى .

لم يكن في الحارة دار واحدة صاحبة غير دار السيخاوي . شربت
كرسى معلق ، اثنين . لم يكن لفتح الله رقبة ان يعود الى دارهم .
قبله النعاس . أرسن رأسه الى الحائط . استيقظ . كان الليل
ساكتا . كان رجال الجوزة انصروا .
السيخاوي مدد . الى جواره نام فتح الله . شد الكيس . توقف

فتح الله . أحس تخجل . في الصباح الفاحش استيقظ . لم يكن بالدار سوى عائم . قدمت له كوب من الشاي . سأله . حكى لها . استمعت إليه . حذلته . أنت ياسي فتح الله وحياة سيدنا النبي رجل بني آدم . الأعمار بيد الله . أبو دراع كان سيموت سواء ضربه حامد أو لم يضربه . المينة مكتوبة على جبينه . كلنا سمنوت . خفف عن نفسك ياسي فتح الله .

فتح الله سمع أناكيد قاطعا أنه لم يضرب أبو دراع . فتح الله تله خفيف . حامد هو الذي ضرب . ففتح الله طرح محدث على هائم . البراءة منها سمعها باذنه . يتنى فتح الله أن يسكون حم هائمحقيقة .

الخالة لم تستمع إلى تفاصيل الجلسات الطويلة . العالة لم تر عالة بين موت السيد أبو دراع والطوفة التي ألت بابن اختها . مصممة على أن تعده إلى دار أبيه .

السبخاوي يفتح الله يا ابني وجل من غير مأخذة ، أسم الله على قيمة ابن اختي ، مش راجل ، لم يكن خفيرا في خدمة الحكرة ، سحاب نسوان بجابر افندى ، جابر افندى رجل ذليل نجس .

فتح الله يجاهه أمه أو خالته . ألمهم هي ، هائم نفسها .

الخالة لا يعوزها الرد ، اللهم احفظ ولا يابان ، يابنى لسان الناس ، اسان الناس لا يبرىء نرجس زوجة السبخاوي ، والبنت يفتح الله يا ابني ماعون شين ، كل واحد حسب ماعونه ، والبنت يفتح الله يا ابني لامها ، فتح الله لم يقتنع . هو سمع ، لكن ياخالة هل هذا يعني أن هائم معيوبة . يفتح الله . من قالوا عنها قحبه هي قحبه ، الخالة لا تعرف ماذا يعجب ابنها في هؤلاء الناس . عيلة معيوبة من طاطا لسلامو عليكو . الخالة تستعرض ، السبخاوي ، نرجس ، حتى يابنى عيالهم قرع .

فتح الله يقتنع تماما حتى نخاع قظمه بكلمات خالته . يضيف ان هذا شيء وهائم شيء ، ياخالة سبب حكاية الزواج لن أتزوج . ترجع الخالة ان ابنها يناور . حاولت ان تصل الى داخله . احسست انه يكاد يفلت منها متخليا عن صدقه في حدثه معها . وبالتحديد مخفيا نياته عنها . يحكمها عاملان : جبها الشديد لابن اختها ، اتفاقها مع عم الوهيدى على ان تعيد الولد الشارد . عم الوهيدى هدد بضرب الولد بالنار . هدد بقتله . الخالة هددت ان الولد قد يفعلها ويسمون في بلاد الله . الوهيدى وافق على زواج ابنه من هائم على

ان يقطع علاقته بأهل البيت . وصية عم وهيدى للحاله الا تفسد
للولد الحال الذى وصل اليه الا بعد ان تكون قد غلت معه . اذا احست
الحاله انه قد آن لحظة القاء الورقة الاخيره . سارحت فتح الله
بموافقة ابيه شريطة ان يقطع ملاقته بالسبخاوي وعائمه .

- ٥ -

يتوجهن وخوف - ممزوجين معا - بالرعب امسكت السيدة جواهر
بالقبض النحاسى الاصفر ، ادارته ، واربت خلفه الباب ، انسلت الى
الداخل . فى وسط الحجرة تنتصب اعمدة السرير ، نيكل بيضاء
مربعة ، تنزل منها الناموسية ، كالحمل ، الضوء الخفيف المتسلل من
ستائر النوافذ يعكسه ظلاء الجدران الزيتى ، طربوش جابر افندى ،
الجنبه ، الكاكلة ، العجزمة ام استك الاجلسيه ، وفردتا الجورب
فوق الرخام على الكومودينو تتدلى منها حمالة استك حرير . رفعت
الناموسية بحدر بالغ . صع النوم ياخضرة العمدة . لا تنتظركم ردا .
لم يعترض على ان تزور اخواتها . يسكنون فى نفس التربيعة التي
اقامت عليها عائلة السوالم منازلهم وسرایاتهم غرب البلد . على
الزوجة ان تتكلف واحدة من الخدمات اعداد دورة المياه . ابريق ماء
ساخن فى المرحاض ، آخر لاغتسال حضرة العمدة .

فى منزل المرحوم ابيها ، بين اخواتها انفجرت السيدة جواهر باكية .
اقات من اللحم الابيض اهتزت . لن تحمل اكثرا مما تحملت . رجل
زناوي ، عياره مفلوت ؛ اقسمت السيدة جواهر بابتها رشاد ، كانت
تفضل الزواج من بائع فجل ، الاخوة يعلمون الا حيلة لهم فى الامر ،
هم انفسهم يفعلون ما يفعله جابر افندى ، لا مفر لهم من مهاودة اختهم
الكبيرة ، عليهم ان يستعدوا الليلة لضيبيط جابر افندى مع واحدة
من نسوان الفلاحين اولاد الكلب فى الحجرة الملحة باسطبل الخيل .
لم يبق الا ان ينام مفلوت العيار مع قحباته فى حجرة النوم . استعد
الاخوة ، ابناء عمومة وخؤولة جابر افندى .

السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله .

تصافح المصلون . انتهت صلاة العشاء . عيال الحارة واولادها على
مضطبة الشیخ سعید . نسوان الحارة فى طريقهن الى التلول .
بعد الذى منه يدققن فى اختبار الطوبية للمسح ، الخشية من ان
تكون الطوبية افراز آدمى حاف ، الاولاد على المصطبة لا يكفون عن
التمسق على مواكب النسوة . حج مبرور . كل سنة وانتم طيبين .
لا يمنع ان تكون ام الواد بين الجماعة . يصفعه ولد آخر على قفاه .

بابن الكلب وسر المصحف الشريف أمة كانت في الوسط .

الدسيسة طرق منزل المرحوم . واحد من خفراء حضرة العمدة . حماس شديد ألم بالست جواهر مع الاخوة تقدمهم كلوب ، دون ان يشعروا كانت وراءهم زفة ، الاخوة اولادهم ، باب الحجرة الملحة باسطبل الخيول العربية الاصيلة ، الكتوف ضفت ، انكسر الباب ، اندفع الرجال تقدمهم السيدة جواهر ، باقى المولد وراءهم ، في ركن الحجرة كانت تقف مزعومة ، مرتعشة ، تلتها هبات برد داخل مسام جلدتها ، دست جلبابها من رأسها ، شدته بصعوبة ، نسيت السر وال - كانعلم المزرم - معلقا على مسامار في الحائط .

خبية الامل حطت على السيدة جواهر . احس اخوتها بالارتجاع . مواجهة العمدة لم تكن شيئا هينا . لحظة مرت او لم تمر . الاخوة وراءهم قعدات الحشيش . السيدة جواهر لحظتها متدهة لم تنته من قبل ان تلدر شاد واخوته . من بعد ليلة زفافها وهى ترقب تسلل حضرة العمدة مع واحدة من الخادمات . فى محاولة للافلات من اللحظة تقدمت السيدة جواهر قوية بدينية فيها عافية تكفى لشد نورج او محرا ثم تتعثر فيه بقرنان من بقر الفلاحين الاعجف ، رفعت يدها الى السماء ورن الكف على وجه هائم . هائم تلف بها ارجوحة لفات سريعة دائيرية متلاحقة حتى لكان الارجوحة ثابتة . هائم فاجر كامها ترجس ، فاسدة كأبيها السبخاوى السحاب . كان الكف اشارة البدء . على الاخوة ان يجاملوه أختهم ، بالايدي ، بالارجل ، بالعصى . يسقط الضرب على هائم ، متکورة ، منكمشة ، مستسلمة ، السيدة جواهر لا تدرى كيف تفرغ غيظها ، خيبة املها فى انها لم تضبط حضرة العمدة . الضرب لا يكفى . همت ان تهجم على البنت وتنهش فى بطنها بأسنانها وبأظافرها فى الاماكن الحساسة . احتارت الموت ماذا تفعل . كل تصرف مباح لها . حرقة تفعل بالفرسسة ماتريد . لحظة نادرة فى حياتها ، انار عقلها على غير توقع منها . التفت الى الولاد والعيال . صرخت فى وحشية : ولاد ، ولاد ، جرسوها ، بنت السحاب ، قحبة كامها . وفي هدوء ، كالهواء النقى ، كان على راسك طاقة الاخفاء انسل رشاد افندى ابن جابر افندى لا يصدق ان هذه هي امه . فى قراره نفسه انها على حق وان هائم القعبه بنت القحبة تستحق اكثرا مما حصل لها .

بنفسه رفض أن يقابل هام حين طلبت لقاءه بعد العشاء ، على سطحهم . في المرة الثالثة ، حمل المرسال .. هام لن تحدثك ، ستعيد اليك أشياءك ، المناديل ، زجاجات العطر ، الفستان ، حتى الفلوس ستسددها ، فتح الله نفسه يحس أو لا يحس انه منقسم . دماغه يملأه طنين ، طنين تصنعه كل احاديث المصادب ، تملا الحارات احاديث جسور الترع ، مدارات السوافي ، قعدات الحشيش ، قعدات العسل والنسوان ، النسوان الجالسات على قرحبهن في الظلام على تلول ذاير الناحية ، وتحسس السباح يحدرك بعثا عن طوبة ناشفة . هام ضبطوها مع رشاد افندى ، مع جابر افندى ، مع فتح الله ، مع واحد من زوار أبيها في الليل ، مع .. مع .. مع ، كامها .. كامها .. هل .. هل .. البهارسيا ، نقط الدم الاخضر ملء كف بعد كل بولة ، توحد كل ابناء البلد ، فضيحة هام ملء كف دم وحدها ووحدتهم هي الاخرى . لا يستطيع فتح الله ان يضم اصبعيه عليها ليقطعنها ويستريح ، جزء منه وليس منه ، جزء من صدره ، اصم ، ابكم ، اعمى ، لا تصل اليه احاديث المصادب والجسور والتناول والقعدات . جزء داخله يعتذبه ، يشد عينيه طوال الليل ، لا تفمضا ، يصاحب خطواته ، يختنق صدره ، جزء فيه هذا الـ « هام » وحدها ، زلطة تشعوط النار كل ماحولها ، هي صامدة ، زلطة يسكنها جنى يتحكم في قسمات وجهه ، في مراجه ، لا يتلقى اوامره منه .

قبل ان يستجيب لالجاج هام ، ليقابلها في حجرة صديقة لها مر على خالتها ، قبلته ، طببت عليه ، ازيك ياضنابا ، تعالى ، تعالى ، يافتح الله ، اقعد الى جوار خالتك ، شبه المرحومة امك تماما ، سبحان الخالق ، ياحبة عيني ، الام تشبه من ياخاله ، اكانت شبهك ، ازعجت الخاله . خالتك ياحبة عيني ايش جابها لامك ، فرق البحر من الترعة . ياخالى البطن واحدة ، انت وامي من بطن واحدة . آه ياحبة عيني ، البطن تجib آزرين والشين ، وابو فصادة والاقرع وراكب الخيل وخايب زمانه . فقهه فتح الله . افلت من قبضة الجن للعين . الجنى الذي يليد داخله ولا يتلقى اوامره منه . جنى حضور

هانم . آه ياخاله نو يسكن فتح الله نى حمانك حتى يوم القيمة .
لحظات الصفو المخانص معك وحده . صفووك ياخالله لا يأخذ بانفاسى ؛
لا يختنقنى ، مسها هي الاخرى تصفو النفس ؛ صفو منقضى خالق
دائما . عرض على الخالة ، هانم دعته للقائتها ، ترثت الخالة ، ابن
اختها ، حبة عينيها لم ير وليقته منذ الليلة الملعونة ، في ليلة واحدة ؛
امسك بفتاته زوجة له .. افلتت منه الى يوم القيمة ، هو لا يقولون
الى الابد ، بعدت عنه في ساعتها . الفد يخيفه ، في يومه الجارى
هي ليست له . الفد في يد ربنا الذى في السماء ، حين يأتي الفد
ويصير يوما حاريا هي ليست له لا يريد او لا يحب او لا يحرق على ان
يعصدر حكمه على الفد . يكفى انها ليست له في يومه الانى . انها
ـ والعلم عند الله ـ قد تكون له في غده . اذ تدحرج غده ليصير
يومه . عندئذ سيصدر حكمه قاطعا . هانم ليست له . قابلها يالبى ،
ثوفقا ، اسمع منها ، العيش والملح له حق ، اللهم استر ولايانا ،
وقوت على بافتح الله .

اللمبة الجاز معلقة على المسماك المدقوق في حائط
الطين ، على الحصيرة جلست هانم وصديقتها . كان سلاما
انقضى له الجنى داخل فتح الله . انها هي هانم . الصوت مرتعش
محشrig مبحوح خافت . ازيك ياهانم . منطوية متکورة . متقدمة .
حزينة ازيك ياسى فتح الله .. الصمت لا يعرف الخفوت او الانفواء
خط .. شريط اللمة يقطقق . استاذنت الصديقة لتعذر كوب الشاي ،
بقى الصمت . سطع نور اللمة الباهت الخجول ، بقه فى حجم حبة
عدس يبشرتها تحرى كالملدورة على العائط ، شجيرات العماقول
الشوکية مسمرة على الجدران لقتل البق النهم . كان نعسانا على
محضبة السبخاوي . تقدمت اليه .. سى فتح الله . وأرب عينيه ،
كان عم السبخاوي قد استيقظ وتركه نائما . سى فتح الله .. صبح
النوم دلقت على يديه من ابريق الفخار الاسمر ، غسل وجهه
بصباونة معطرة قدمتها اليه ، على كفها كوب الشاي ، تأمل وجهتها ،
نور اللمة الباهت الخجول يسطع على جبهة هانم . ازيك ياهانم .
اكتشف ان يده ممسكة بيدها . فزع . كان بين اصابعه ثعبانا .
سحب يده على عجل سحبها وهو لا يدرى حقيقة مشارعه . من دماغه
كان ينطلق حديثه قاسيا ينهى كل شيء . كل شيء يجب ان ينتهي .
السيرة لبانه بين افواه القسرية . قسمة ونصيب .. من المنطقه المجهولة

هانم هي هي ، هانم الى جواره بنفسها بلا زيادة ولا نقصان . عرضت هانم بؤجة بها اشياء فتح الله ، ردها . هو ليس خسيسا . هانم آمنت ، انت صحيح لست خسيسا وانت ابن ناس . ماذا يصنع فتح الله في الكلمات . هو يقصد انه ليس خسيسا ليسترد اشياء خرجت من ذمته ، اما ان تخرج الكلمة من فمه لتكون حبل اتهام تسيء تخفق فيها مالم يرده . كل شيء يتمرد على اراده فتح الله حتى كلماته . انفجرت هانم باكية ، هو ابن ناس اما .. احس بحزن حقيقي . حزن من المنطق المجهولة ومن دماغه معا . مثلما كانت خالتة تقبله على جيئته قبلها على جيئتها ، بشكل خفى ، تقبيلها على الجبهة عمل مختلف تماما عما فعله رشاد . لهذا فتح الله يبيح لنفسه اتيانه . هو يتفرد بالجبهة . هانم .. عليك ان تدعى كل شيء للقد . في الفد يجد فتح الله راحته . وعدها ان يزورهم في البيت . كانت قد نقلت اليه خبر مرض امها .

- ٧ -

يبدأ بصداع في الرأس . همود في الركبتين . تهدل في الجسد كله . اسهال . قيء . بعد ثلاثة أيام ماتت الام . ماتت نرجس . لم يشترك فتح الله في السير في الجنازة .

في نفس اليوم ماتت امرأتان . مات ثلاثة رجال . في اليوم الثالث استقبلت أقواء المقابر خمسة رجال . دفنا - ايضا - على الساكت . امرأتان . عدد من الاطفال . ببطء تدريجي ثابت . تسال الخوف . ملا البلد كلها . خلت المصاطب ، قعدهات العرسيل ، حتى المساجد . تجمعات مختلسة مرعوبة تهامس ، تتناقل آخر انباء المرض ، اى الموت . من اصيب بصداع فيه الشك والامل . الاصهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . اشاعة ان البلح هو السبب . المرض الجديد معد يا اولاد . ثلاثة أيام ثم الموت . لا مريض واحد شفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنائز صامتة . الدفن لا يتوقف في كل بيت مريض او ميت او مروع . قش الرز ملا الشوارع والمصاطب . على قش الارز يجلس المшиعون . المدرسة الازامية ، ومكتب المحافظة على القرآن الكرييم

انلاقا . سوق الاثنين ماعاد يقام . كل واحد انطوى على خوف عميق . خرف يخاف ان يهمس به لنفسه . لا أحد ابدا هاجمه المرض وشفى البلد انقسمت قسمة غريبة كما لم يحدث أبدا او كما هو حدث دائمًا . عيلة السوالم اقامت مسكنرا وقائيا حول سراياتهم ومنازلهم احتمت داخل معسکرها . فكروا ان يقيموا سورا بين بيوتهم وباقى بيوت الفلاحين ، او غريب عن العائلة محظور عليه الاقتراب من بيوتهم . أهالى البلد عليهم وحدهم ينصب قضب الله . العائلة الغريبة الواقفة على البلد بيوتها منعزلة . الشغالة الذين يخدمونهم في الفيظ والبيت حجزوهم داخل المسكن . منعوهم من النزول الى ذويهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر افندي احتجز السبخاوي وكلبه سبع الليل . مقابر البلد مفتوحة الالاهى وحدهم . المقابر ضاقت بالموتى من أهالى البلد . عبد الشاطر خيل اليه ان برأسه صداعا . حمل فاسه الى الفيظ . هو يعالج الامراض بالشفل . اربعون عاما ما اعترف بطبيب او مستشفى . الاعمار بيد الله .. هو مشغول دائمًا فكيف يمرض . المرض رفاهية العاطلين اهل المصاطب . هو دائمًا وراءه شغل في الفيظ . الارض ياؤلاد دائمًا تحتاج الى اليد الى تلعب فيها . ترفع الحجر من جانب عود القطن ، تحيطه بالتراب الناصم . الزرعة في الفيظ كالطبخة لو تركت على السكانين شاطت . عبد الشاطر عاد بفاسه . لم يصدق انه أصيب بأسهال . علامة لا تخطيء . عم الوهيدى الحريص الوعى الرزين جن .. كل شيء يارب لا عبد الشاطر . لم ينجب سواه . هو كل شيء .. من اجله كل شيء . ابيع البهائم بيهيمة ، الارض التي جمعتها شرعاً شيئاً . ابيعها ، اعود كما بذلت لا يهمنى ، يبقى عبد الشاطر ، سنهلخ ارضاً جديدة من تحت الارض ، سنملا الدنيا زرعاً وقلعاً وخيراً . عبد الشاطر ، عبد الشاطر ، حمل الرجال عبد الشاطر نزلوا به الى القبر العميق . انهال التراب . عائلة السوالم بحالها كان المرض لم يعرف بيوتهم . لا رجل لا امرأة لا طفل . الحالة هي التي افضت الى فتح الله ، يابنتي البنت هانم سمعت ياؤلدها انها تعانه . الحيرة عاودت فتح الله . امها ماتت ، العمدة حجز اخواتها . فتح الله حملته خطواته الى دار عم السبخاوي . تخطي القبة في خوف . دق صدره خبيطات متلاحقة . دوار خفيف طاف بدماغه ولم

يلتفت اليه . قابل عينيه صمت مقبض . كل شيء يراه لأول مرة . باب الدار . شرائع غليظة من افرع الشجر . تراب قديم يفترش كل ساق امامه . الهباب طبقة سميكه هشة متراكمه على السقف . الدار ، برح حمام مهجور ، طافت بذنه كلمات موال . حرمت يدار اخشن الزناق علشانك . هو لم يدخل هذه الدار منذ زمن خيل اليه انه عمر بطوله او ليلة . البلاص الذي كان دوماً نظيفاً ومرقاً بتنقى الشمس . مبخرًا بالبيان المحرق ، الجوزة . هنا جالس رجال الليل أخذ منهم اعطائهم ، حدثهم ، حادثوه ، اتعبيهم ابو دراع ، طوفه حملته الى الليل كان يكره عيلة السوالم ، كلنا تكرههم يافتح الله ، لكن جابر افندى هو المتوى ، آخر محابية معه ، ابو دراع اقسم بالطلاق ، طول م ان الكلب متحكم فينا م يعيش معانا كان يبكي كالحرقة . ياجماعة هو ابن الكلب ورانا ورانا في الفيظ ورانا ، في الليل ورانا ، انا ه اعدي الشرقية ، لكن من قتل فهيم بن زينه لحساب العمدة . غممم الرجال حتى هائم لفت ودارت . كانت احياناً تقصس . هل كانت تكذب وهو تشتم عيلة السوالم . طالت وقوته . نادى اسمها . هائم .. هائم .. الفي نظرة على القاعة الجوانية . دفع الباب . وقف في البحارية . زكمته رائحة الرطوبة والعتمة تملأ اركان العجرة . زيل ارباب في حجر داخل المصطبة فوق حصيرة باهتة هائم منكورة . وجمعاً المحافظ انين حافت لا يصل الى ابعد من آذان الجدار وحمل الباب صوت فتح الله . استدارت . رفعت عينيها اليه فتح الله اربك تذكر خيرك يافتح الله ، انسىش والملق له سق . كانا كالمخوة . كيف تحدث يكتب . فتح الله عليه ان يرجع ، فالمرش الملاعون سعد . لم يهد فتح الله يستمتع بشبابه . الانقسام الذي عذب قتي الله ارتفع كله خالصاً لهائم ، لكنه يحس ان دماغه هو الذي يدفعه خنقه الصدر ، شلل الجسم كله ، افتقد هما اذ يتناول هذه البار . تلتم اليها . حزين . حزين من اجل حالة هائم . جلس الى جوارها دف صدره . امسك بيدها . اربك ياهام . احساس قوى بالواجب يدفعه . عن راسه تسقط تصرفاته . هذه هي هائم يافتح الله تمن لها الشفاء . لم يطرح على فكره مابعد الشفاء . شعر تم جلباه بفاس قديسة جرد القبراء . رش تراباً تائضاً . فتح دولاباً داخل المحافظ . سحب جلباباً نظيفاً . اجلسها . استد غليرها الى صدرها .

بكوز ماء ، سقطة قماش بليلها ، مسح وحدهما ، يذيها ، قدميهما ، تخلع عنها الجنياب الذى تلبىء ، البسها الجلب المفسول ، أعد لها كوب شاي ، اعطاها حبة أسيرين ، عصر لها شقة ليمون فى كوز ماء . ارادت أن تقضى حاجتها ، أنسدتها إلى كتفه ، بدد خجانها ، عيسى ياهانم ، السنا اخوات ، داخل الدار فى مربط قديم نعزة بيعت قضت حاجتها . كنس لها المصطبة التى تشفل صحن الدار، مصطبة رجال الليل ، قعدات المعلل والخشيش . فرش الحصى ، أجلسها على المصطبة ، واربت هانم عينيها . الضوء يملأ الدار . يمامه تهدل على السطح . صحوة تتمشى فى اوصال هانم . حلم . أكدت أنها لن تموت . الموت لا يقدر أن يأخذها من جوار فتح الله . فتح الله يعرف أن هانم هي مايربطه بالبلد ، بلد السوالم . هل حقاً كانت هانم تكرههم . هل تعود الحيرة داخل فتح الله . هل تغير دماغه منها . هل لحظة صحوها أوجعته إلى حيرته والى الانقسام داخله . أحس فجأة بضيق لم يذر سببه . أدارت هانم عينيها . المت بكل ماقوله فتح الله . نظرت إلى جنابها ، يديها ، اعمرت ذاكرتها ، أحسست بخجل حقيقى حين تذكرت خلعها جنابها أيام فتح الله وقضاء حاجتها سحبت عينيها بعيداً عن فتح الله مدارنة لخجلها ، عادت تنظر اليه ، امسكت بونن بكته ، طلبت أن يجلسها . في عينيها الدار نظيفة كأنها في ليلة عرس . حاولت أن تتفق . لم تستطع . جلست . افتد بها الدار بشدة . صوبته عينيهما نحوه . لم تكن تعرف الله يصرها كل هذا الحب . وفي المساحة الزئنية التي احسست فيها هانم بديب النهاية ، احسست بعنة ضبابية أن اكتشافها فات متأخرًا " اذ انتفتم داخلها دلائل صدق حب فتح الله لها مع دلائل الاحسان من الحسدى بالنهاية . لم تستمتع لحظة واحدة حاليه باكتشافها أنه يحبها كل هذا الحب . ياسن أم بعدد خلايا جسدها . خلية خلية . ياسن كانه القوية هقوبة تكتش عنها هي وتخضع مرشمة لها . أهل العجز عن افصاحه ، أن تحيا لحظة واحدة مع اكتشافها بعيداً عن يقين الموت . لا تملك التقدرة من الحياة أن تسأله أنسوا سبب عمامها عن عاطفة فتح الله . أم يجد سبب . وكانت تعرف فتح الله حتماً كان سيفعل ما فعل .

كانت تعرف كلماته قبل ان ينطقها . تصرفاته قبل يأتيها . لكنها ابدا لم تكتشف قبل ، ولا تكتشف الا في لحظة آفلة . احساس فوق اليأس ، فوق الالم ، يفوق الحياة نفسها ، يعلو على الموت . المددة على المصطبة . ظهرها الى الحائط . الى جوارها الرجل الذي احبها تنظر اليه . ليس بعينيها ، فان عينيها قد كفتا عن وظيفة الابصار ، تنظر اليه بخلايا جسدها كلها مختبرة الملابس والسر والغموض . احساسها لم يعد يرتسن في شكل معنى . لا تعبر عنه الكلمات . المعنى والكلمات ينتسبان الى شاطئه تقلع عنه . احساسها رؤى تنفرر داخلها . هي ذاتها غدت رؤية . احساسها قطيفة حمراء غامقة . تزداد غمقة حتى تصل الى لون اسود . احساسها ، قطيفة لحمتها الحياة بطولها ، سداها الموت بعمقه . حياة بلا نبض الحياة . موت بلا همود الموت . حياة تموت . موت يحيا . في لحظة لقاء متوجهة مكتومة معتمة ملعونة . اليأس لا يرتسن معنى . يبرز شكل ارض تسبح تحت رجليها . الارض تنفتح . بئر تقع فيه بقدميها اولا . تحاول قدمها ان تتمسكا بارض ، بتراب . الارض تغور . هي يشددها البئر . يشددها البئر . انها داخل البئر .. داخله .. يشددها .. يشددها ..

يحاول . فتح الله ان يمد يده ، يمسك شيئا لا يقبض عليه . الحياة ليست وقفا على ارادتنا . تعاش مرة واحدة . اكتشاف لا يدرسه الا وهو يفقد هانم . على الخشبة تمدد الجسد . فسلته المفسلة . وضعت القطن على الخارج . كلوب صغير خافت الضوء تقدم النعش ، النعش على كتف فتح الله . واحدة من مقابر الحرير ، انزلوها برأسها ، قالب من الطوب الاخضر تحت رأس الجسد المسجى . اهيل التراب . فقيه ضرير جلس خلف القبر يردد كلمات كثيبة . لا وقت للحزن . رجع الشيعون لايزيد عددهم عن اصابع اليدين . تخلف فتح الله . وقف وحيدا . الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل .. امه .. سيد ابو دراع .. عبد الشاطر .. اخيرا هانم .. الظلام .. السكوت نواح خافت يأتيه من بعيد ، من داخل البلد . بلدة كثيبة ، مقبضة ، ليس بها ما يربطه اليها . يبرز وجه خالته تضييع في جهاته ابتسامة يلتقطها فتح الله دائما . الاصابع الطويلة المعروفة . تحركت

قدماه . كان الطريق الثاني من داخل المقاير يقود الى جسر المصرف
النظامي ، الجسر الذي ترقد البلد الموبوءة في ظله . سارت القدمان .
تبهية مشاعر تلفه . لا يعرف شيئا . لا يدرى شيئا . لا يرغب في
شيء . لا يرغب عن شيء . كل شيء كاي شيء . مات هانم حقا .
هو يحبها الان . معاشرت سدا في وجه . حالة انا هـ . هـ . هـ .
هـ ياخالة . القدمان تخطوان . الكون كله ظلام وفراغ . تحت
المقاير ظلام وفراغ . على سطح الارض ظلام وفراغ ، السماء ظلام
وفراغ . وانتم يارجال الليل ، ياصحاح ، قادم اليكم ، لم اقتل
السيد أبو دراع صدقوني ، ردوا ، مدوا ايديكم عيناي توشك الا ترى
موضع قدمي .. رصاصة واحدة تضيء الطريق .

كل شيء حقيقة

.. أمام المربع الذي كونه التقاء نهاية بطن الجاموسه البلجة مع نخذلها الايسر ويندلی من وسطه الضرع ، جلس «نجيـه» على قرها .. مسحت داخل الطاجن بيدها اليمنى ونفخته .. بين دكبيها وصدرها وضعته .. ضغطت بركتبيها قليلاً لتحكم تمكناها من وضع الطاجن .. ضغط الطاجن بجداره المواجه لصدرها ، حلمتى نهديها ... أحيـت الدفء الخفيف في جدار الطاجن .. سرت رعشة لم تحسها في بدنها كلـه .. ترکـت ململمة في حشو بطنها السـفلـي .. ارتجـافـة واضـحةـ فيـ الجـزـءـ الدـاخـلـيـ منـ رـحـمـهـ .. وبـلاـ تـحـدـيدـ تـعـرـضـتـ «ـنجـيـهـ»ـ لـتـيـهـ مـشـاعـرـ وـارـتعـاشـاتـ وـاحـسـاسـاتـ وـضـيقـ لم تـدـرـ سـبـبـهاـ ..ـ لـوـ انـهاـ حـرـةـ نـفـسـهاـ لـقـطـعـتـ مـشـوارـاـ جـرـيـاعـلـىـ جـسـرـ التـرـعـةـ ..ـ اـكـتـفـتـ انـنـفـخـتـ وـاتـبـعـتـ نـفـخـهاـ اـسـتـفـارـ اللـهـ الـعـظـيمـ ..ـ حـزـنـتـ حـزـنـ اـمـرـأـ اـتـ المـحـظـورـ ..ـ بـاـصـاعـ بـدـيـهاـ الـاـنـتـنـيـنـ شـدـتـ بـرـازـ الجـامـوسـةـ الـاـزـبـعـةـ كـلـ عـلـىـ حـدـةـ ،ـ بـرـفـقـ ،ـ فـيـ حـرـكـةـ حـلـبـ وـهـمـيـةـ ..ـ اـلـ اـنـ حـنـتـ الجـامـوسـةـ ..ـ اـنـتـصـبـتـ الـبـزـارـ فـيـ كـفـ «ـنجـيـهـ»ـ اـسـفـنجـيـةـ ،ـ دـافـنـةـ ،ـ مـنـتـفـخـةـ بـالـبـنـ ..ـ عـدـلـتـ «ـنجـيـهـ»ـ مـنـ وـضـعـ اـسـابـعـهاـ ،ـ وـبـيـنـ السـبـابـةـ وـالـاـبـهـامـ ،ـ وـمـنـ عـنـدـ التـقـاءـ الـبـزـ بالـضـرـعـ ..ـ عـكـمـتـهـ ،ـ وـنـزـاتـ ضـفـطاـ ،ـ فـانـبـقـ سـرـسـوبـ الـبـنـ حـارـاـ مـنـدـفـعاـ إـلـىـ قـاعـ الطـاجـنـ مـحـدـثـاـ طـبـيـشـاـ يـطـفـيـعـ الـظـلـماـ ..ـ خـلـاـ دـمـاغـ نـجـيـهـ وـجـدـهـاـمـ اـيـ شـيءـ حـرـكـةـ اـنـتـقـالـ الـبـنـ مـنـ ضـرـعـ الجـامـوسـةـ إـلـىـ الطـاجـنـ ..ـ تـحـتـ سـقـفـ الـزـرـبـيةـ حـوـمـ عـصـفـورـانـ مـنـ اـعـشـاشـ الـقـشـ الـكـثـيرـ الـتـىـ بـنـتـهاـ هـذـهـ الـمـخـلـوقـاتـ الـدـخـيـلـةـ بـيـنـ سـقـفـ عـيـدـانـ الـفـابـ ..ـ اـصـطـدـمـ وـاحـدـ مـنـ الـمـصـفـورـينـ بـالـلـمـبـةـ الـعـافـورـىـ فـوـقـتـ عـلـىـ الـأـرـضـ ..ـ أـظـلـمـتـ زـرـبـيةـ جـابـرـ اـفـنـدـىـ ..ـ نـهـقـ حـمـارـ مـنـ طـرـفـ الـزـرـبـيةـ ..ـ رـدـ عـلـيـهـ مـنـ طـرـفـ الـعـزـبـةـ حـمـارـ اـخـرـ ..ـ قـطـعـ عـجـلـ بـقـرـ الـحـبـلـ الـذـيـ يـرـبـطـهـ إـلـىـ الـمـدـوـدـ ..ـ تـشـمـ اـمـهـ الـرـبـوـتـةـ إـلـىـ جـوـارـهـ ..ـ كـانـتـ عـشـارـاـ ..ـ لـمـ يـمـنـعـهـ ذـلـكـ مـنـ مـحاـوـلـةـ اـعـتـلـائـهـ ..ـ اـبـتـعـدـتـ عـنـهـ بـنـصـفـهـ الـخـلـفـيـ نـافـرـةـ ..ـ تـبعـهـ ..

شدت البقرة رقبتها ، فانقطع البهتانى يمسكها الى الملاود ..
داست فوق الجاموسة الكديش المربوطة انى جوارها .. كانت -
بلا احلام - تجتر .. قطعت عملية الاجترار ووقفت .. في الظلام
احست «نجيئه» صف البهائم قد انطلقت وانها موشكه ان تدوسها.
رفعت الطاجن .. ووقفت على حيلها .. لطم رأسها وطواط يحوم في
سقف الزربية .. حاولت ان تلمس طريقها بين الجاموس والبقر
والحمير .. غارت قدمها في درقة جلة ساخنة .. احست بحق
وضعف .. ارتمست داخلها لعنة على البهائم وآبائها وعلى اصحابها
وآبائهم .. لم يكن جابر افندي في ذهنها وهي تلعن اصحاب البهائم ..
كلماتها المنطقية كانت نداء مكررا على سيدتها الحاجة فطوم ..
 جاء حسان تسبقه دائرة ضوء ملقة من بطارية .. دائرة الضوء
تنحرك فوق الohl والشرب ، وبولة حمار بالها في موضع حافر
جاموسة غائر .. البولة صنعت بحيرة .. اعواد برسيم متناشرة ..
عين حسان تسجل .. مع ان حسان بقده يسير في الظلام خلف دائرة
الضوء فان «نجيئه» رأته في طول باب الزربية ، اطول من صالح ،
الرجل الذى خرج ذات صباح مع البهائم وعادت البهائم دون عودة
صالح .. تبينت نجيئه بوضوح داخل رأسها أعلى صدر حسان تكشف
عنه فتحة طوق جلابيته .. البريق في الظلام يخيف - لا نعرف
لم - لكنها بحثت عنه بعينيها في وجه حسان .. أو قد حسان الليبة
العافورى .. وضعها مكانها فوق رف الزربية .. نادى صبيا لربط
البهائم .. اندار خارج الزربية .. حسان الصعيدي - حسب ماتناهيه
نجيئه بصوتها - لم تالف منخاراه بعد رائحة زرائب الفلاحين .. الزربية
برمتها في خبائث «حسان» دكان عطارة .. في انف نجيئه تكاد
تكون كل رائحة محددة ، بول الحمير له رائحة مالحة مقيدة ..
الجاموس والقر بوله مائع الرائحة ، تكاد لضيقها به ان تتحسنه
بامانها .. كارها . استجاب حسان لطلب «نجيئه» .. امسك
برأس الجاموسة البلجة حتى تنتهي نجيئه من حلها .. الاشتئاط
المرتسم على وجه حسان كان مناسبة لان تساله نجيئه عن عدد
الذين قتلهم في الصعيد حسان فوضها ان تختار العدد الذى يروقها
.. حسان لا يفرق بين ان تقتل مرة واحدة وان تقتل الف مرة ..
حسان الواقع امام راس الجاموسة .. على حدقتى عينيه ضوء
الليبة العافورى الباهت الذى يشغل وسط الزربية .. اركان

الزربية الثمانية مطموسة تحت ظلام لا يصله ضوء .. ظلال البهائم تقع مختلطة على أجسامها .. الصبي مازال يربط البهائم .. أشواط قش في اعتاش المصافير تتدلى من سقف الزربية .. انهه بالقطط الروالع الفواحة بحاول ان يميز بين كل رائحة على حدة .. صوت شخوب البن في الطاجن تعوده اذناه .. همهمة نجية مصرة على ان تعرف العدد الحقيقي للناس الذين قتلهم .. مخيلة حسان هناك .. ينزل من مفارقة في بطن الجبل .. في كتفه البندقية الميزو .. يتطلع الى السماء .. يشاهد نجمات اربع .. الليل انتصف منذ وقت ليس باليسir .. هذه المفارقة فريدة .. تقع في منطقة .. تذكر كل من محافظتي اسيوط وسوهاج تبعيتها اليها .. ظلمة الصعيد ظلمة صافية ، ظلمة خالية من اللون الاسود ، ظلمة فلل الجبل يختلط والشمس وراءه ، بالسحاب .. لكن ناسه سود عجاف .. العيال كلهم عيانين .. انتهت نجية من حلب الجاموسية البليجة .. سار حسان امامها باللمبة .. نجية تسأل ، حسان يرد ، انه سيفنى الليلة .. ازاء ما اخبرته به نجية من انها ستحضر الفرح ، احس حسان بالتزام الشهامة - فهما يعملان في دار واحدة - ان يرعاها فوق السطح وهى مع بنات ونسوة العزبة الالائى يتفرجن على الفنانين ، وان يصحبها عند عودتها بعد انتهاء الفرح .. نجية تحاول ان تعرف من حسان الموال الذى سيفنى .. حسان يرد بكلام لم تفهمه نجية .. حسان ليس محترف قناء مواويل .. سيفنى الموال الذى يخطر على باله .. انتهت نجية من رص طواجن البن وغسل الماعين .. وقبل ان تصرف سالت سيدتها الحاجة فطوم تستاذتها في الانراف .. الواجب الاخير على نجية ان تؤنس سيدتها مع العيال حتى عودة جابر افندى من الجامع بعد صلاة العشاء .. زامت نجية .. في ذهنهما ان جابر افندى ليس من يحرضون على الصلاة ، حسان موضوع حديث الحاجة وخادمتها .. حكت الحاجة ان حسان قاتل ، وانه قد قتل امه لأنها تزوجت رجلا آخر بعد وفاة ابيه ، وانه قد هرب بعد جريمته .. تعجب الحاجة من امر حسان ، فهو رجل طيب ، وان حلال ولا يرفع عينه ابدا ، واصابعه مثل اصابعنا نحن .. نجية استاذنت سيدتها في تصحيح الحكاية ، فحسان قاتل حقا ، ولكنه لم يقتل امه بل قتل زوجته وقد ضبطها في حضن واحد من اصحابه .. حسان قتل الزوجة ومازال ينتظر الفرصة حتى ينسى الناس

وينسل عائدا الى الصعيد لقتل العشيق ، وطلبت نجيه من سيدتها الا تامنه ، فكل القتلة يبدون طيبين ابراء ..

جابر افندى ، شيخ العزبة الذى لا يلبس طربوش ، رجع من الجامع فى رواية زوجته .. وiben مكان آخر فى زعم نجيه .. جابر افندى له معلوماته الادارية التى تختلف معلومات حريمها ومعلومات خادمته ، حسان مجرد ولد حرامى من الاشقياء ، وذات ليلة كان يسطو على منزل رجل طيب مستور .. الرجال الطيبون فى الصعيد قلائل .. استيقظ صاحب الدار وضبط حسان يسحب البقرة .. حسان قتل صاحب الدار .. لم يبق امامه الا ان يهرب من الصعيد كله ، ويصبح فى وجه بحرى ، ويحتمى بأهل السطوة .. جابر افندى هز رأسه ولكنه لم يخطى على صدره بطرف اصابعه المفردة .. الحاجة فطوم بذاتها ما يبدل على عدم التصديق .. كادت تقصن حكاية قتل حسان لامه .. اندھش جابر افندى من ان زوجته الحاجة لم تؤمن على كلاماته التى قالها وتلك التى لم يقلها .. مع ان ضوء اللمة الغاز نمرة عشرة لا يساعد على ابراز ملامح الحالين فى المندرة ، الا ان الحاجة فطوم ، وكانت على خلاف ما يشى به اسمها ، ذات ملاحة ، تخيلت تقاطع الوجه المندھش الفاضب ، وكما توقعت .. اسمعها حابر افندى الحديث الذى نسبه الى نبى المسلمين عن نقص عقل النساء وايمانهن .. امنت الحاجة فطوم .. حوقلت .. بسملت .. صلت على من وضعت يدها على شباكه ، البنت نجية اعتبرت على سيدها .. اقسمت بالست زينب الظاهرة ان حسان قتل زوجته .. وترجحت بعدها الى جابر افندى خاصة ، مؤكدة ان ليس اطيب من النساء .. جالت بعينيها - فى حسد - على جدران المندرة .. مطلية بالجير الابيض .. اجزاء من الطلع سقطت عن طبقة الطين الاسود .. صورة دباب بن غانم على فرسته البيضاء يطعن بحربة طوبينة الزناتى خليفة .. دارت نجيه مع الكتب الاسطامبولي .. عم الشحات خفير الحكومة ، اللى بندقيته الى جواره .. ينفع النار فى الطاجن يسوى عليها براد الشاي .. الدموع تملأ عينى الشحات من الدخان وتنزل الى شاربه الكث المهوش .. جابر افندى بين شفتيه غابة الجوزة .. جابر افندى يقطع بأسنانه قطعة حشيش يتناولها الى عم الشحات .. شيخ العزبة يتم الخفير بانقطاع النفس .. فجأة

تذكرة نجيه الفرح وحسان .. تهب خارجة الى الشارع متتجاهلة
نداء جابر افندى .. مهمممة فى داخلها بما يمكن ان يصاغ فى
كلمات .. حرام عليكم ياناس ياكفره يا اولاد ستين كلب .. سيبونى
اشوف نفسي ..

- ٢ -

القت نجيه حزمة برسيم الى الارانب داخل حجرها تحت المصطبة
التي تشغل اكثر من نصف الحجرة والتى تتخذها منامة تفرش فوقها
الحصى .. القت نجيه حزمة برسيم ثانية الى الغروف الصغير
المربوط فى البحراية .. نظرت الى مثنة العيش .. افتقدت رغيفين
وحزمة بصل وقطعة جبن قريش .. عرفت ان اسم النبي حارسها
ابنتها هانم قد تناولت عشاءها .. غسلت نجيه رجلها ووجهها
وتقربت وارتدت فستانها الكستور الشجر الذى زفت فيه الى
صالح .. رغم ان الجلاية او الفتان متلازمة مع صالح ، بحكم
انه هو الذى اشتراها .. وبحكم أنها قد لبستها لأول مرة من اجل
صالح ، فان نجيه لم تذكر صالح ، ولم يرتسم في مخيلتها ، بل ان
نجيه لم تربط بذلك ابنتها بين ابنتها تلك التى تأكل ارزها ولبنا مع الملائكة ،
ويبين صالح ، وهو الرجل الذى وضع داخل نجيه بذرة هذه
الابنة ، ان « صالح » خلافا لكل معلوماته رغم أنها من اخص خصائصه
.. وضع بذرة هانم ظهيرة يوم صائف قضى ليلته بعيدا عن نجيه فى
غيط القطن .. ليلة قضاها ساهرا تحت الساقية كي يقوم بتوزيع ماتدفعه
الساقية من ماء على خطوط ارض القطن ولو سهى او نام وغرق القطن
وذبل فقعوته يعرفها جيدا .. علقة من جابر افندى او اتهام بسرقة
الحراث الخشب .. صالح جاء ظهرا الى حجرة نجيه .. انسى
والقى بنفسه على المصطبة .. دخلت نجيه .. جلابة صالح متكونة
تحت جسده .. رجاله مكتشو قتان .. سيقان لا تأخذ اونها من الاولان
المعروفه .. اسود ، ازرق ، اصفر ، ابيض مدلولة تحت جلد صالح
.. شعر جاف .. خشن .. باطن قدمه لا تستطيع ان تحدد ما اذا كانت
مفسولة او مفطأة بطبقة من الطين .. على ان هذا الطين - على فرض
وجوده - لم يعد طيبنا .. انه طين تالف مع الجسد الحى .. اخذ
منه واعطاه .. خضع الجسد والطين فى القدم لمتطلبات المشى والجري

على الشوك والتراب ساخنا يحرق في القهيره وباردا يرجف في الشتاء .. في بطن القدم شقوق .. في الشق الواحد تخفي أصبع طفل .. تأملت نجيه الجسد ، لا تحس أنه مكدوبي .. لا تسمع الشخير العالى الصادر عن جهاز تنفسى مختنق .. فى أذنى نجيه طنين .. طنين لا علاقة له بالشخير .. طنين حقيقى بلا رمز أو دلالة .. جسد صالح تعرض لعملية هر قاسية عنيفة .. نجيه تسأله ، اذا كان يريد ان شرب ؟ كذلك تطلب منه ان يعطى نفسه .. قصارى ما فعله صالح انه أعطى ظهره للجدار .. كانت الحصيرة متقوبة فى الموضع الذى التقت فوقه نجيه وفريستها .. ظهر نجيه لم يحس بالثقب .. لالتشابه بين ظهرها رقدم صالح .. الثقب قد نعمت ورقت وتأكلت حوا فيه .. لأن الحصيرة واونها معا قد خضعا لعوامل الزمن .. عينا نجيه المتوجهتان الى السقف لم تسجل طبقة الهباب والساخام وهى طبقة حقيقة من الهباب .. طبقة من الهباب بلا رمز أو دلالة .. شبشب نجيه يطربق بصوت مسموع على ارض الحارة .. نجيه في طريقها الى الفرج .. فوق السطح الذى يطل على الوسعاية داخل العزبة وبين النسوة والبنات ، كمنت نجية .. ضوء الكلوبات التى تشر الوسعاية سقط على وجوه النسوان فوق السطح ، الكحل الاسود فى العيون وعلى الرموش ، لطشات اللون الاحمر على الخندود بانت .. في الوسعاية ذاتها تحلق الرجال والأولاد جلوسا على الارض فى ايديهم شماريخ وخيرزانات من سوق الخميس فى السنبلاوين عصى من فروع شجر وزارة الاوقاف الذى يحيط بالعزبة والقسطنط .. بندقية الحكومة معلقة على كتف الخفري الميرى .. الخفري يهش بخيرزانة طويلة خطفها من ولد غنام .. الخفري يطلب من الرجال باسمائهم ان يسكنوا ومن الارولاد منسوبين الى آبائهم ، اما الارولاد الذين مات عنهم آباؤهم وهم صغار فينسبهم خفري الحكومة الى امهاتهم ..

- البت هائم بنت نجية ..

وبادلت النسوة فوق السطح اماكنهن الى ان جلست كل منهن امام الوجه الذى تبحث عنه ويبحث عنها .. التقت عينا نجيه بعينى حسان .. ابتسمت نجية ولم يتسم حسان .. وغنى لطفى الميهى من رجال العزبة موالا عن شجرة السنط التى رواها بدفع عينه فى بؤونة .. حبيب المفنى الذى يجب قرى وعزب وكفور العب .. يصنع النسمة بصوته الخشن فنى موالا عن البت بيضاء اللون التى ترعى

الليل فى الحنه .. طلب الرجال حسان .. دون قصد ، وقعت عينا
 حسان على نجيه وهو يغنى :
 - ملا .. ملى قربته
 ميه تصافى نيل
 - ملى وسابها يا ليل
 فى الشرع تلزم مين
 - تلزم جدع جد
 يسوى من الرجال الفين
 .. انتفضت مهاتجة الاجساد النحيلة المرهقة بحصوات الرمل ،
 متعددة الاحجام والتراثيب ، داخل قنوات الكلى ، وجع الجنب الذى
 يتحاشون ذكر اسمه صراحة ويسمونه المخسوف ، وقف الرجال
 كلهم منتثرين فى فرح غامر لم تفرزه بذاتها هذه الاجساد ، فالمثانة
 مليئة ببول مدمم ، وارتقت المعنى والثبات ونطقت الاسن
 المكتومة ، التى لا تتحرك الا لبلع الريق ، طالبة من الصعدي مزيدا
 من الماوى ، ومحببة الرجال الظنابيا ، وهاتفة باسم الليل والعين
 والحب والسجن والفق والجدعان .. وانطلقت رصاصة شيشقت
 ببارودها المحترق ، ظلاما فوق العب كله .

- ٣ -

مع الحوارى الضيق المظلمة والتى يسقفها التقاء الحطب على جدران
 صفى الدور فيها .. مع نباح الكلاب على كل شبع .. مع نهيف
 حمارين فى طرف العزبة .. تنتقل خطوات حسان .. فى هوادة ..
 فى جيب صدريته مدية داخل جراب جلد .. فى يده عصا غليظة
 . ينحسس بها السكة .. عصاة الصعدي ذراعه .. فى راسه صورة
 أنته .. صغيرة ، لم تتعدد سنتين .. مرت أعوام عديدة ولم تكبر
 صورة الصغيرة عن آخر مرة رأها ، بطنها عريان حتى الصدر ..
 منتفخ قليلا .. ارجلها رفيعة وجهها مت BX .. على عينها ذباب كثير
 .. الصورة ثانية داخل دماغ حسان .. ستظل الصورة كما هي
 باقية .. وقدماه تحملانه الى كل مكان ، الا حيث توجد صغيرته ..
 داس حسان على عصاه فوق الارض .. اذناه .. والصورة تحرك
 ثانية داخل رأسه . تلتقطان كلمات نجيه .. نجيه مع انها انشتت مم

المنتشين ، حارت مع كلمات الموال .. لم تتوقعه .. ليس فيه كلمة الحب .. نجيه ترفض موضوع الموال .. ترفض ان يكون من مجرد ملء قرية بالياه اغنية يرددتها الرجال في الافراح .. حسان هو الآخر لاول مرة يفحص كلمات مواليه .. لكنه موالي عزيز لديه .. طالما ردده لنفسه .. في الظلام احسنت نجيه ان «حسان» يبتسم .. لم تفهم لم .. لقد دمعت عيناه ذات مرة وهو يدندن لنفسه ، داخله وعيه ولاوعيه حميم ، بكلمات الموال ، ذات ليلة كان مختلفا وراءه مدينة الاسعاعيلية في طريقه الى الزقازيق .. كانت ليلة مظلمة ، قضى أولها مشيا ثم استراح الى مقهي .. واحدة من المقاهي ، عشش صفيح او غاب تقام على جانب الطريق .. اصحابها رجال واحيائنا نساء لهم عين تعرف الغريب ولا تذكره .. تقدم له كوب الشاي الساخن .. كرسي المعلول ولا تتردد عن دس حبه «أفيون» ودائما كلمة طيبة تفوق كل المخاوف .. صوت عم الشحات الخفي يستفسر من القادمون .. اخذ سيجارة من حسان .. نهر نجيه بنت الكلب .. كيف لا ترد على جابر افندي حضرة العمداء وهو يناديها .. لم تكتمل في فهم عم الشحات كلمات نجيه الساخرة وهي تحدثه عن الشرف الذي حصل لها من عم الشحات ومن حضرة العمداء .. ونفمت العينية كلمة حضرة العمداء بما زاد من ارتباك عم الشحات داخل معطفه الذي كان أصفر والذى ارتداه لاول مرة ذات يوم من ربىع قرن مضى كان عهدة واحد من جنود الحلفاء واشتراه الرجل قبل ان يدخل خدمة الحكومة من سوق السنبلاويين .. باربعة برائى استرد منها اجرة الاتوبيس ولم يخلمه منذ ذلك التاريخ .. وهو تاريخ حقا لا مجازا ، لأن عم الشحات يُورخ بهذه المناسبة ، قابنه احمد انجيه قبل ان يشتري المطف بستينين بل ان الانجليز حاربوا الالمان سنتين شراء هذا المطف .. ومعطف عم الشحات وان انتسب تاريخيا الى اصل اجنبى الا انه الان واحد من مواطنى العزبة .. مواطن مستقل ، حتى ان عم الشحات لو خلبه لهب المطف في الصباح الباكر مفادة داره الى مسجد القرية يدخل دورة المياه يقضى حاجته ويتوضأ ويصلى وكعنين ويلقى على رجال العزبة فى طريقه الى المسجد ، ومنه الى داره تحية الاسلام ، ويرد التحية ، حسب الاصول ، فلو قالها واحد من الشفالة لردها «وعليكم السلام والرحمة» ولو ألقاها واحد من اوساط سكان العزبة يردها «وعليكم السلام ورحمة الله» ولو

القها هين من اعيان العزبة .. واعيانها قليلون ، لرد معطف عم الشحات التحية « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » وسارع المعطف بتقبيل اليد .. بل ان المعطف يحمل فاسه ، اعني فاس عم الشحات ، الى غيط جابر افندي او غيط الوسيه في العزب المجاورة .. وان معطفنا .. وقد صار عم الشحات واحدا من الساهرين على امن المواطنين .. يحمل البندقية ، ويكون على مصطبة بعينها ، وبعرض القادمين ، ولا ينسى ان يطلب سيجارة من المصارف ، وينقول نفس الكلمات :

— ازاي بابت يانجيه بابت ستين كلب جابر افندي شيخ العزبة
ينده عليكي العشية ومارديش ؟

على ان الفعل الذي كان سيقدم عليه المعطف مخالفا في ذلك عم الشحات .. انه ، لو انه بمفرده ، ماتردد عن صفع نجيه على وجهها جراء سخريتها من جابر افندي في شخصه هو .

امام حجرة نجيhe وقف حسان متها للانصراف .. عزمت نجيhe بکوب شاي .. تناول حسان اربع بيضات مسلوقة برفيقين .. نجيhe تنفح في النار تعد الشاي .. حسان طلب عود حطب من النار بشعل به سيجارة .. امسك نجيhe من ذراعها .. ندت عنها صرخة مفرغة من كل البناء النفسي والعصبي للصرخة .. ومع ان حسان لم يفهم المسألة على هذا النحو ، فلم يفت الصعيدي ابن السلك التي لا تنتهي نوع الصرخة التي اطلقتها نجيhe ، حسان امسك ذراعها الشاز ، سراه ، تأوهت نجيhe ، اساء حسان تفسير الصوت ؟ كانت الاية الماجسدياين اليد الخشنة ، لم تكون اشارة ان تقدم فالطريق مفتوح على مايرام .. في الوقت الذي كان حسان على المصطبة جسدا خالما .. كانت نجيhe غير خالصة لجسدها ، كان دماغها بعمل ، في مخilitها صورة صالح زوجها ، في فكرها عتاب ليس كاملا لصالح ، بل انها تذكرت مقام سيدى الشيخ صالح الدين ، الذى قيد بغير حبال ، الرجال الذين حاولوا ذات ليلة ان يسرقوا زرع البصل من الغيط الاقام فيه مقام سيدى الشيخ .. وقد ايقاهم سره الباتع مربوطين الى الارض حتى جاء فى الصباح صاحب الغيط ، وهو الذى يقوم على خدمه المقام ، وتضرع الى الشيخ صالح الدين ان يصفح عنهم .. وادىقى حسان انه موشك ان يصل الى هدنه .. طرقت اذنيه مما تجديدات نجيhe مقسمة بحياة سيدتها زينب الطاهرة انها ستتصوت

ولم أهل الحارة وأهل العزبة جمِيعاً إذا لم يتركها .. تحرك شيء في جسد حسان يدفع كفيه أن يطبقاً على رقبة نجية ، شاهد لسانها يتذلّى مع فقاعات اللعاب من فمها .. ونفذت من ذئنه .. مرة ثانية .. كلمات نجية القاطعة طالبة أن يسيّبها .. لم تكن نجية ترفض لقاء حسان .. بل أن تتحقق هذا الشيء بذاته كان ملء دماغها ، وملء كل خلايا جسدها ، منذ دخل الزريبة ، ووقف أمام الجاموسية الملحقة ، حتى هذه اللحظة ، وهي تقسم بحياة سيدتها زينب الظاهرة .. وفي الوقت الذي كانت نجية فيه راضية بفكرة وبجسدها ، راضية بصوتها وب فعلها ، كانت عينيها تسجلان تهدم الرجل الذي أمامها ، بمتعة حسية ترتد باصولها إلى الكهف الأول .. بشكل غامض ، ورغم شدة الرفض ، كان دماغ حسان بما يصل هذا الدماغ من مشاهدات تنقلها إليه العين ، وعلى وجه الدقة : من خيوط من موقف نجية تنقلها عين حسان إلى دماغه ، ومن أصوات ، أو من خيوط من صوت نجية تنقلها أذن حسان إلى دماغه .. من خيوط من فعل نجية وصوتها .. كان حسان يحدد أن رفض نجية ليس قاطعاً ، لذلك : فجهاده ظل مستمراً ، رغم كل التهديدات ، وطالت المناهدة حتى انهك جسد حسان ، وعجز دماغه عن تسجيل خيط الرضى وسط حزمة الرفض .. تقدم الحسد يائساً بلا تهدم يعارض نجية ، سجلت نجية التغيير الذي طرأ على الموقف دون ادراك ماهية التغيير .. المرأة التي كانت راضية بجسدها وبخيالها ، افتقدت الرجل بتهدم أمامها ، وواجهت جسد حسان وذراعيه .. حسان صار جسداً أعمى يعارض لا يعرف ، يعارض من أو يعارض لماذا ؟ وفقدت نجية المتعة ، وتوحد توزعها إلى رفض لا تكاد تعرف رفض ماذا ، لكنه رفض المطلوب في لحظتها هذه ، وتصدى جسدها بادواته .. جسد لا يشق في قدرته الذاتية ، لكنه بدنيا مصمم دائمًا على أن يحمي نفسه .. لقطع حسان الاستفادة قبل أن تنطلق ، وفك ذراعيه .. سلك طريقه في الحارة المظلمة الباردة لاهثا .. لم يبتعد كثيراً قبل أن يلتفت على صوت أنثوى رائق حنون .. كانت نجية تهدى يدها ..

– السكينة ياسى حسان وقعت منك ع المصطبة .

في الصباح الباكر .. امام رأس الجاموسية الكديش ، وقف حسان
ببرش جلدها في المنطقة الممحصورة بين قرنيها وجنب رأسها ، والتي
لا تطواها الجاموسة مهما حاولت حكها بظلف رجالها الخلفية ...
الجاموسية ملقية برأسها على حافة المدود ، تاركة نجية تنقل اللبن من
الفرع الى الطاجن ، بنظرية جانبية رصدت نجية حسان .. رغم ان
اذن حسان لم يتغير وضعيوما ، فقد رأتهما نجية متهدلتين كاذن حمار
بعد يوم كامل في نقل الولح من الزرية الى الفيط .. نجية لم تتأمل
داخلها .. لا تعرف لم رفضت يقينا ، في ذهنها فكرة مبهمة عن ان
ذلك حرام .. حرام لماذا لا تعرف .. كانت خالية من الزهو ، رغم
اذن الحمار المتهدلتين ، لم تعد ماحتث انتصارا لها ، او لفكرة رفض
الحرام ، على ان ذلك لا يعني انها آمنة ، وحين سالت حسان عما اذا
كان مازال زعلانا .. لم تكن تقصد اكثر من فتح باب للحدث معه ..
حسان اذنه تسمع كلمات نجية بموقف من لم يحدد موقفه بعد مما
حدث .. البمل يجمعه بتجهيزه ، ومجدد لقائهم او استعماله لها لا يفسر
ماكثر من ذلك .. وهو يستمع عينه تدور داخل الزرية .. الزرية
واسعة .. ضوء الصباح انارها .. بقرة تبول .. المسالل يسفل
من بين اعالي رجلي البقرة الخلفيتين .. النيل تندفع مباهه من قناطر
اسنا .. في المذارة ، بين محافظتي اسيوط وسوهاج ، حيث الاهتمام
من رجال الشريطة .. سبحان الله .. كان اسمهم البوليس .. الرجال
هناك داخل المفاردة .. يدخنون سجائر الحشيش .. برعى يفاجئهم
بحكمة توصل اليها عن وضع المرأة .. الى جانب كل رجل يتدقسه
.. المدفع الرشاش داخل المفاردة .. برعى يقسم بالحرام من ذراهه
.. برعى له زوجة لكنه لا يحلف بالطلاق .. تمسارع دق قلب حسان
امام الجاموسية الكديش في زريبة جابر الهندى .. ابن برعى ..
اعاد الى سجن اسيوط .. ام مازال يتنقل بين مدارات الجبل مفاردة ،
مفاردة .. برعى يقص المارك التي تخاضها المطاريد .. برعى صاحب
قلب لا يخاف .. السجن اكثر راحة وامنا من نهار الصعيد .. كانت
احلام الرجال عجيبة .. في النهار يحلمون بالقبض عليهم .. البنادق

تفق لا تطلق الرصاص .. في أحالمهم دائمًا مكسوروون أيام رجال الأمن .. انتصروا ذات مرة طوال حديث ليلة .. أنهم في أحالمهم أضعف منهم في واقعهم .. في الأحلام دائمًا يسحبهم رجال الأمن مربوطين بالحبال .. نهارهم مقبض مخيف بالاحلام .. الليل هم أبناءه .. رجال الليل .. حكمة برعى .. ليلة .. أقسم بالحرام .. المرأة لا تستطيع ان تفتقض الرجل .. الرجل وحده في قدرته ان يفتقض المرأة .. حكمة ربنا استنتجها برعى وامن عليها رجال المغارة .. لكن «حسان» لم يستطع مع ذلك .. حسان لم يعد رجلا .. نزل من الجبل .. نجية لا ترضي هذا التوزع في حسان .. هي لا تصل الى انه توزع في حسان .. تفسره على انه زهل مما حدث .. هي تخلط بين عودة التوزع داخلها نفسها بين الرضى والرفض ، وبين رغبتها بحديثها في مصالحة حسان .. عودة نجية الى موقف الوسط بلا شك في نفس الوقت خطوة تستلزم مصالحة «حسان» وان تلك خطوة لم تحسن المشكلة التي بدا أنها شاغل من نوع جديد يطرق حياة نجية ..

كان طلب نجية الى ستها الحاجة فطوم ، ان يسحبها حسان بالطحين الى القرية المجاورة ، عملا داخل المشكلة ، بل انه تعامل مع المشكلة وجهها اوجه .. حسان يسوق حمارا يحمل زكية أرز .. نجية وراء حمار ثان يحمل زكية قمع ، في طريقهما الى مكنة الطحين الحديث بينهما حديث بين اصدقاء .. لم يعودا مجرد رجل وامرأة جمعتهما ظروف الخدمة في منزل سيد واحد .. في حاضر نجية ليس حسان الصعيدي .. ليس واحدا من الرجال العديدين الذين ينقطفهم جابر افندى من الطريق ، يقدم لهم الرغيف وقطعة الجبن ونباكو المعلس او السيجارة .. وآخرها الحماية .. أصبح .. واصبح هنا فعلا كاملا .. أصبح حسان كائنا محدودا بذاته داخل معارف نجية .. كان محدث بالامس لم يكن فشلا لحسان او انتصارا لنجية ، وهو كذلك ليس العكس .. ان صفتى الفشل والانتصار لا يقع لهما هنا .. نجية تحاول صادقة ان تجذب حسان الى المنطقة التي وصلت اليها .. ترضي الان ان تتعس في حراسته .. لا تخاف من سكينة يضعها حسان على رقبتها .. ذلك لا يمنع أنها سمته قيلا ، قاتل قاتل جهلا به ، وهي تسمية الان قاتل قاتل قتلى مزاهاة ودردشة ، وسعسماه في الغد قاتل قاتل دون ان تدرى آنذاك حقيقة

مشاعرها .. حسان يتلقى صدق مشاعر نجيه .. لا يحمل لها داخله كرها او حبا .. امراة فيها اون نساء وجه بحرى وملاحتهم وعادة لا يرفن .. وهم يسقطان الى المفارة اذ لم يكن لها باب بل تقب على سطح الجبل ، يرمى حذره من نساء الصعيد .. الاوجب العرض من نساء وجه بحرى .. هذا لا يعني ان «حسان» في داخله سد صفيق يقف بينه وبين نجيه .. هو محق لو انكر مثل هذا الحاجز اساسا .. هو رجل مسالم ، لا يقوى ان يواجه التوడد الانساني بالجود ، او باللامبالاه ، او بالحذر .. سرعان ما ضحك طفل ، وبانت اسنانه البيض وسط وجهه المستدير الفاقع السمرة .. اشعل سيجارة .. عبر عن شفقة حقيقة ازاء المجهود البدني الذى تبذلها نجية في منزل جابر افندي .. نجيه ترى انها القسمة والنصيب ولقمة العيش .. القسمة والنصيب .. هما رب حسان .. لكن لقمة العيش لا تملکه .. نجيه تعارض مؤكدة احسان ان لقمة العيش تملکنا جميعا .. عندما يعاود حسان اصراره على ان لقمة العيش لا تملکه تفاجئه نجية ، انه لو كان يملك في الصعيد ارضا وبها مثلا مثل جابر افندي ، ماسح في بلاد الله الواسعة .. حسان لا ينفع ، يقتصر على انه لا يرضى ان يكون مثل جابر افندي ..

عندما عادا وقد يضا الارز وطحنا القمع ، كاتا قد اتفقا على الزواج .. نحن لا نملك مضططة الحديث بين حسان ونجية ، الثابت لدينا ان الحاجة فطوم - كعادتها - اندھشت من افتراح نجيه ان يصحبها حسان الى مكنة الطحين ، وانها - الحاجة - قد افضت الى زوجها بمخاوفها التي تراها برهانا على انها امراة حريصة وافية .. جابر افندي - كعادتها - سخر من مخاوف زوجته ، ولم تمنعه السخرية - كالمادة ايضا - من ان يأخذ برأيها ويبحث عن آخر يصحب نجيه ، وفوجئ فعلا بعدم وجود من يصحب خادمته وهى تطحن الطحين .. فالفيط الزم له الخفراء .. وتمادى فى افلهار سلطته الادارية فى مواجهة زوجته باصراره على ان يكون حسان مع نجيه ، وفي السر اتصل ، عن طريق تليفون الحكومة .. بعده القرية المجاورة ، بصاحب مكنة الطحين .. نقلت نجيه الى حسان مخاوف سيدتها .. ود الصعيدى الطيب انه عندما يربد ان يسرق قان برگ حمارا ليسرقه بل سيركب جابر افندي نفسه ..

الثابت لدينا كذلك ، ان حسان ، رغم احاديث المفارة ، وقد احس

التودد في كلمات نجيه ورغبتها الصادقة ان تنقله الى المنطقة التي وصلت اليها في علاقتها داخليا بحسان ، لم يكن لديه بقلبه الطيب ان يواجه صدق نجيه بالحدار او الجمود .. حسان سأل نجيه عن اصلها ، وفصلها ، وماذا اوقعها في دار هذا الرجل .. نجية بلا اصل وبلا فصل وبلا حكاية ، ثبت في دار جابر افندي .. امها كانت قبلها خادمة في دار جابر افندي .. لم تر لها ابا .. ولو لا ان اسمه منقوش على ختمها ماعرفت اسمه .. لم تحدثها المرحومة امها عن ابيها .. المعلومة الوحيدة الاكيدة ان اباهما لم يكن من رجال هذه العزبة .. امها نفسها ، والله وحده هو العالم ، لم تكن من نساء العزبة .. الناس في العزبة لا ينسبونها الى اسم ابها او حتى الى اسم امها .. نجية التي تخدم في منزل جابر افندي .. نجية زوجة صالح الذي يخدم جابر افندي .. ارتسمت في مخيلة حسان ارض الصعيد .. رملية صفراء .. قبطان العدس بنواره ... بنواره الزاهي .. البطن الصغير العاري المنتفخ .. الارجل الرفيعة .. حادثة الامس نقلت نجيه الى جوار حسان .. رغم ان الحادثة لم تتحقق قفيتها ، ولم تتحقق الا ذاتها ، ولم تخط خطوة واحدة ابعد من كونها قد حدثت .. حسان انتقل الى جوار نجيه بشيء مختلف عن حادث الامس ، بل .. رغم حادثة الامس ..

واذ علمت الحاجة فطوم بموضع الزوج - كعادتها - اندھشت ، درفضت على اساس ان الرفض يعطيها صفة الحلار والحرص ، فضلا على ان حسان في زعمها قاتل .. جابر افندي هر راسه ، لحسان ، في زعمه ، مستعملا لغة عمد بلدنا ، مجرد متشرد ، حرامي ، لم يجد من يرد .. على ان حسان امامنا ، وعلى قاتب الارقؤل قنی موالا لم تفهمه نجيه .. او لم تحاول ان تفهمه .. والسؤال نفسه ، اثار دموع حسان ذات ليلة .. حسان لم يخترع الوال .. ولذلك فماوال لا يفسر حسان ولا يفسر الزوج ولا يفسر الوال اى حدث تاريحي ..

- ٤٥ -

.. في اوراق مركز شرطة السنبلاويين ، او محافظة الدقهلية ، لا تنسب العزبة الى جابر افندي .. جابر افندي نفسه ليس افنديا

.. الا ان هذه الاوراق لاتلزمنا .. ولن نعرف العزبة الا بعزبة جابر
افندى .. رغم الطاقية دبر الجمال التي تعتلى ياقوته ..
.. على طريق الجازورين ، الذى يربط عزبة جابر افندى باكبر
قرية مجاورة ، والذى قطعه حسان ونجيه فى الصباح ذهابا الى
مكانة الطحين وعدة منها .. وبين الاشجار العالية فى ظلمة لم تصبح
بعد مخيفة .. بين الغيطان الحالى من البهائم والكلاب ورجال العزب
واولادها ونسوانها .. على طريق الجازورين .. سار حسان ونجيه
وطلقى المفى .. شبشب نجيه يمتضى تراب السكة صوت طرقته
الذى كان حريا بها ان تسرى فى الليل الى مسافات بعيدة ..

لطفى يدندن داخل نفسه .. حسان لا يعرف تحديدا ماذا هو
فاعل .. كان قد اتفق مع نجيه على الزواج .. الزواج فى ذهنه لم
يرتبط بماذون وبشهود وبعقد وان تكون نجيه زوجته .. عندما
بدأت اولى الخطوات لم يمانع فى ت التنفيذ ، وان لم يكن قد تصورها
ولو ان نجيه طلبت منه ان يصحبها الى الماذون لرفض ، لكنه لم يمانع
فى الذهاب الى الماذون لانه تفید لاتفاق ارتبط به .. ذلك لا يعني
ان حسان بلا خيال .. ففى دماغه دائمًا صورة ليل الصعيد مقمرة ،
تهز رءوس التخيل فيه نسمات منحدرة من الجبل ، وصوصة
كروان ، وان لم يعرف اسمه ، وقد ينزل الى مدينة أسيوط فى
وضح النهار .. لا لانه لا يتصور ان المخبرين قد يلاحقونه ، ولكن
لان الرجال فى الجبل اختاروه ان ينزل المدينة لزوم العمل ..

.. فى اول الطريق احست نجيه ، وهى لا تكف عن الكلام ،
ناسف ، ليس لان بختها قد خاب مع زوجها صالح ، بالتحديد لان
اللون الاحمر على خديها من ورق التفتة ، غطاه ظلام الليل مع الكحل
الاسود الذى اطبقت بجفونى عينيها على مروده .. خفف من اسف
وحزن نجيه ، انها هناك فى حجرة الماذون ، وقد وضع اللمة نمر ،
عشرة امامه على الطرايبة ، وسألها عن اسمها ، وطلب منها تردد
الكلمات التى تعرقها ، وطلب منها الختم .. هناك ستبدى حبه ،
شديدا ، وتندو لكل العيون حمرة الخدين وسواد العيون وخصلة
الشعر التى سحبتها من تحت المنديل المطرز بالترتر الزجاجى ،
وشغلت جزءا من جبها ونزات على اذنها .. دلالة انها ليست بنتا
صغيرة .. بل امرأة تعرف ان تتنفس بتراب الفرن المحترق شعيرات

الجبهة والوجه والساقيين .. وعموماً تعرف كل أفنان المرأة ..
.. أمام الماذون .. كان لطفي هو المتحدث .. ففي داخل لطفي
وهو مفني المزبة ، أنه ثمة علاقة قد لا تكون واضحة ولكنها موجودة،
بين مهنته كرجل يقني في الأفراح وبين مهنة الماذون كرجل لولاه ماتقوم
هذه الأفراح .. هذه العلاقة ليست وحدها ما يدفع لطفي على أن
يقدم الى الماذون ليساً موافق على اجر عقد القران .. رباط قوي
او انتقال صداقه بين لطفي وحسان .. لطفي الغلبان .. هو الرجل
الوحيد في المزبة الذي لا يحمل احتراماً حقيقياً لجابر افندي ،
وسميه بينه وبين حسان .. البغل ، ويقسم بالطلاق ، وهو لم
يتزوج بعد ، إن لا فرق بين جابر افندي وبين الحمار غير أن الحقيقة
وراء ذلك ، إن لطفي لا ينسى أن جابر افندي طلب منه أن يشتري
فاساً ويستغل شفالة يأكل منها عيشاً بدل الكلام الفارغ الذي لا يفيد ،
وهذه مرة بعمل محضر تشرد ..

.. كما توقدت نجيه تماماً كل شيء حدث .. حجرة الماذون مطلية
باجير الذي كان أبيض وصار اسود واصفر من الدخان .. النقوش
على الجدران .. سفينة كبيرة .. مقام كبير .. الماذون حج الى بيت
الله .. قطع العبر التي تساقطت من طلاء الجدران شكلت هي الأخرى
تؤواها اكثراً افصاحاً عن نفسها .. اللبنة نمرة عشرة .. الطرابيزية ..
ابن الماذون حضر ليكون الشاهد الثاني .. الماذون لم يكن يقصد
سؤاله بذاته حين سأله نجيه عن سنتها .. شهقت نجيه لا لأنها
تستكثر أن تكون صغيرة إلى الدرجة التي لا يفطن فيها الماذون إلى
ياوغها سن الشرع .. لأن هذا الماذون بالذات سبق أن عقد زواجهما
على صالح .. سرت بيدها على خصلة الشعر المسحوبة من وسط
منبت رأسها وأفاقت إلى الماذون بما ظنته واحداً من معلوماته الإكيدة
.. سيدها الشيخ سبق أن زوجها من صالح .. ترك الماذون الرئيسة
.. عاتبها على أنها لم تخبره من الأول ولم تقدم له قسيمة الطلاق ..
الماذون لم يصدق أن صالحها لم يطلقها .. صالح منذ ثلاث سنوات
سحب بهائم جابر افندي مع باقي الشفالة وعادت البهائم والشفالة
ولم يعد صالح .. انتظرته ولم يعد .. نجيه كادت أن تخصص جزءاً
من الجلسة لبكاء .. نظرة إلى حسان والى المناسبة منعها .. كلمات
الماذون قاطعة في عدم جواز اتمام العقد الا بعد استخراج قسيمة

طلاق من المحكمة .. أضاف المأذون ان ذلك الزواج لو كان تم لكان زنا لا زواجا .

.. حسان لم يفهم المسالة تماما .. كاد أن يلوم الماذون ، لولا
ان قاعدة مهنته ، أن هذه هي مهنة الماذون ، وهو أخبار يشون مهنته
.. نجية انكرت موقف الماذون .. امرأة صادقتها في صحن الطبيخ
حبة كوسة مرة .. لا تستغرب أن تكون هناك حبة كوسة مرة ..
تعرف أنها تستطيع ان تفرز هذه الحبة المرأة قبل ان تضمهما الى
الطبيخ .. تقابلها الحبة المرأة فتتذكر وجودها .. بالنسبة للماذون
نفسه ، فلم تقطع بجديته في الامتناع عن عقد الزواج ، وعندها يقين
انه لو قبض اكثر او طلب منه جابر اندى فسيتم الزواج .. تعرف
ان الماذون يقينا يحتفظ في مخه بحل ما لكنه لا يديه للقراء ..
يديا في أعماقها هي ، كانت المنطقة بين هذا الزواج والزنا غير
بيئة الحدود .. الزواج يسبقه كتب كتاب ، وهاهي تود أن تكتب
الكتاب .. كلما ارتفعت من داخل أعماقها اشتيمت بالحدود حتى
تصل الى أن ذلك مننوع ، ولكنه ليس مستحيلا ، ولو حضر جابر
اندى فالمقد حتما سيعقد .

.. في طريق العودة لم يصرح لطفي لصديقه ولابنته عزبته أن ذلك فعلاً حرام مالم يحضر صالح ويطلق نجيه .. لكن أين صالح .. حرام أن بقى نجيه بلا زواج .. بقاوئها بلا زواج وهى شابة سيدفعها إلى الواقع فى المحظور .. لطفي كان صاحب فكرة عقد القرآن عند ماذون القرية المجاورة .. فالسيئات التي يتحملها أهل العزبة .. يدفنون موتاهم فى مقابر القرية .. يشترون السكر والجاز والزيت والشاي والمعسل من دكاكين القرية .. يعقدون زواجهم ويفضوهه عند ماذونها .. هذه السيئات انسحت أن يقتراح لطفي عقد القرآن ، في الليلة التالية ، عند ماذون قرية أخرى يعرفها ، وغنى فيها ليل بضرلها .. المطلوب فقط انكار سبق زواج نجيه .. طلب من نجيه إلا تضع الاحمر والاسود ، وان ترفع المقصوص من فوق جبئتها ، حتى يكون زواجاً من اول وجديد .

.. لأن الزواج لم يتم بعد ، فقد أوصى حسان وصديقه ..
تجبه ، إلى دارها واتجهها إلى دار لطفي .. دخنا المسلح والخشيش
دندهنا مع رجال القعدة .. أنشد لطفي بالقاء عاد منعم ..
ردده معه ووراءه رجال القعدة .

أنا زارع شطرين باميه
عند الساقيه البحريه
كان عندي حماره عرجه
نفت من العسكريه ..

.. الرجال ينفجرون ضاحكين .. لطفي عنده خزين من الماويل
الحمراء .. يحفظ كثيرا من النكات والنوادر والحواديت ، وايس
هناك من يغليه اذا دخل معه في قافية .. وفوق ذلك عنده كثير من
الكلام الهلس ..

.. في الليلة التالية تم عقد زواج حسان ونجيه .. دس حسان
صورة عقد الزواج في جيب صديريته مع نصف قرش حشيش ..
لطفي كان قد اقترح ان يقيم لصديقه .. ليلة عرس ، يغنى فيه
حتى الصبح .. يدعوا اليها زملاءه من مفتني القرى المجاورة .. تدور
الجوزه على الرجال .. يحرقون المعل والخشيش .. يصمهلون ..
لطفي وان يك حسان فربما ، لا يراه اقل من اي واحد من اهل العزبة
الخرفان الذي يؤنس ليلاليهم .. نجية وحسان اعترضا على اقتراح
لطفي .. بخط حسان على كتفي لطفي ، مقدرا فيه الرجولة
والشهامة .. متزحجا قليلا عن فكرته من ان الرجال في الصعيد ،
اما وجه بحرى فمحمر شغل ..

الظلمة والسكون في السماء وفوق العزبة .. المدقات التي تصل
انعزبة بما حولها من غيطان وقرى وكفور لا يتعرفها الا ابناء العزبة ..
معطف عم الشحات من فوق مصطبته في اول العزبة .. اعترض
القابعين .. نجية قدمت وجة عشاء خفيفة لزوجها وصديقه .. ارز
وبيض مسلوق محمر في الزيت .. احتفظت بذكر البط وحلة المكرونة
حتى تخلو مع حسان .. اللمة العافوري التي اسهمت شعلتها في
صنع طبقة الهباب في سقف الحجرة ، اتخذت مكانها تحت المصتبة
.. لملة جاز نمرة خمسة تفقيء الحجرة .. هانم مراحة بعيدا عن
المصتبة .. نجية فرحة مبتهجة .. قدمت اكواب الشاي .. مال
لطفي على اذن حسان .. ضحك لطفي وهو يستاذن من نجيه في ان
نصحب حسان ليدخلنا معا كرسى معل .. عرفت نجيه ان «لطفي»
سيقدم تحيته الى صديقه لا اقل من نصف قرش حشيش غير قمحات
الافيون ، نبوت نجية على حسان ان يعود سريعا .. هي تخاف
الوحدة .. اخرجت نجيه حلة المكرونة فوقها ذكر البط استعدادا
لتسيخينها فور عودة حسان .. اخرجت ورقة التفتة الحمراء ،

دمعت بها خديها .. المروود دستة داخل زجاجة الكحل .. أطبقت جفنيها .. سحبت المروود مارا بالرموش .. أدمعت عينها .. تلطم على قطعة المرأة .. دخلت مناخيرها رائحة زبل الارانب من الجحر تحت المصطبة .. قررت أن تخلي من الخروف الصغير المربوط في البحراية لأن تنقله مع بهائم جابر افندى .. سمعت طرقا على الباب .. اتفضت مسروعة ثلثه .. حسان لم يكن قد عاد بعد .. وقف امام الباب .. الحرارة فيها سكون .. دور الفلاحين مقلقة .. خافت على حسان من كلب اسود عصايس ينام دائمآ في اول الحرارة .. الجاز في اللمة الزجاجية قد اتصف .. همت ان تقف امام الباب لتعرب لحسان عن زعلها لتأخره ، وكذلك عن اعزازها لحبها .. اكتشفت وجاه اتها وحسان غريبان .. انهم معا قطعا من شجرة .. لامت لطفي ان حجز حسان كل هذه المدة الطويلة .. الا يعرف لطفي ان حسان قد تزوج وانه اصبح زوجا وان له امراة وان ليس من حفنه ان يتصرف في قته على وهواء .. همت ان تخطف نفسها الى دار لطفي .. ليس عيبا لو فعلت ، فحسان زوجها ومن حقها ان تسأل عليه ، وان تقلق لفياه ، بل وان تحاسبه .. نباح كلاب داخل العزبة فوق الاسطع وفي الحارات وحول العزبة .. حمار ينهق بعيدا في طرف العزبة الثاني .. عم الشحات اخذته سنة من النوم .. عم الشحات لا يفرق بين السنة من النوم وبين الفطيط .. المطف او البليتو او السكوتر يؤدي واجبه التاريخي حول جسم عم الشحات .. يعترض القادمين ويطلب سيجارة من المعارف .. الحاجة فطوم تنقلب على جنبها الاعن ، جابر افندى خارج الدار .. هو في قعدة يفك عن نفسه .. جابر افندى نفسه انتهى من تدخين المعلل مع الحشيش في طريق عودته شرج على المسجد بين ان يصلى او يقضى ضرورة .. على ميضة الجامع جلس يتقيا ديكا وصحن فتة من داخل كرشه .. نجية زاد ميلها الى ان تنهي حسان من منزل لطفي .. تدرعت بالصبر .. بالحكمة التي توصى الانسان بطول الباب .. جلست على المصطبة تستمع ، بصبر فارغ ، الى كلاب تنبغ والى اقدام تدق على ارض الحارة ..

حسان خرج من عند لطفي بعد ان حرقا معا لا اقل من عشرين كرسى معلل في وسطه تعميرات الحشيش .. لطفي دس في يده قمحه افيون نزوم الليلة .. على باب الدار حضن حسان صديقه لطفي وقبله .. حسان اتخد طريقه مصمما دون ان يعرف او يدرى لم .. بعيدا .. بعيدا عن عزبة جابر افندى ..

طرح المجد

... سطح المسجد الحجري ممتد امام عينيه امتارا بدلت له
فسحة .. هبات ربيع موحية تتسلل الى الجسد النحيل ، تهزم
في غفلة من صاحبه .. وتلطم شعرات الشارب الاصفر الناعم ..
فتلال جلباه البففة المنحولة ، لستر العوره .. عورة الجسد المطوطط
لا اكتاف تتناسب وطوله .. رائحة المساء الرطب تملأ خياله ..
جبهته الكثرة فوق عينيه الثقيبين تتنافر بشدة مع قدميه الطويلتين
في خف شقافي الجلد والتلعل وبلا رباط .. يدور في خطوط زمن
مستعرضا سطح المسجد .. ومطلا على القرية .. ذيبحته الليلة
تحديدا .. تلتقط اذناه الحركة الخشنة الصادعة من دورة مياه
المسجد حيث يتراوقد اولاد الفلاحين امام الميضة ، للاغتسال وتبادل
الاخبار واتفاقات العمل والشئام والسب والاستهزاء بكل الذي لا قوه
في يوم بدا منذ فجر بغيد ..

... نهاره هو لم ينته بعد .. مغربه تمسك بشمسه خيوط -
كشاريه - صفراء تخنقى وراء سحابات شتوية دائنة ..
... قالت له بتوفز : استرح .. الايام - تقصد الليالي - كثيرة
آتية ..

... من بين جفنيه بيضاء الجلد ، مصفرة ، انطلق سهمن من
بصر .. تقلبان سقف الحجرة بضوء اللمة العجاز نمرة خمسة ،
 وبالصور القديمة المستقرة وراء خلايا المخ وداخلها .. اعواد الغاب
المصفرة والمسودة ، المتساندة على فروع خشب قديمة ، والنائمة ،
خلية البال ، لا تحمل ذكرى واحدة لايام عديدة قضتها على شاطئ
الترعة ، خضراء ، مونقة ، متقدمة بالحيوية والنماء ، تتماين
ادراقتها مع الربيع وتستقبل ضوء القمر ، وتتفو مع ليل القرية
الوحش العاري الكثيب ، فوقها - فوق الاوراق الفضة - تتصنع
نقط الندى الصافية البلورية الماسية مع شعاعات شمس صباح باكر
طفل بريء .. يجمعها بحرص ديني ، حفييد خفيف مرح حافى القدمين

يمسك في إيمان مطلق وثيق ، بصر جده عجوز ، ترقب عودته في
قاعة رطبه مظلمة ، تكافح باصرار ، الا تنقل ضوء عينيها الى عكاز
توت .. تلمس به ، لا يبصريها ، موقع قدميها اللتين يجب أن تدب
دائما ..

.. فتيلة اللمة تسحب بقایا الجاز وقد احمر جزء من طرفها ..
ابدانا ان الجاز - ولا غيره مصدر للضوء داخل حجرات البناء الضريحي
التي بلا عدد - موشك على النفاد .. وان الفتيلة ، موشكة ان تعطى
من ذات نفسها ، وان الظلام القدرى موشك ان ينهاى .. بدماقه ،
انشق » من باب الاوضة ، كما يعرض على تسمية البناء المربع
المسقوف ، الذى يضمها سويا ، والتى تصر الجاموسة ، ليست
تصر .. بالتحديد لاستطيع الا ان تسميه .. بحكم وراثات فجرية
التاريخ .. قاعة .. لله وحده كل ما يبذل من عذاب محاولة تعليم
الجاموسة .. كيف ترمع .. تقتسم رأسه .. وسط زحمة افكار
ملتهبة محاولة عد حجرات السراية .. تهب ظلمة على رأسه
تطمس كل شيء .. ستائر خيوط العنكبوت الكثيفة .. اسلم نفسه
الى يأس جديد .. الحجرات بلا عدد ، لكنها كل ظلامية عنكبوتية
موحشة .. البناء كله في سبات تاريخي يبدو بلا نهاية .. حجرة
واحدة في ركن منها حصير قديم .. في ركن ثان صفيحة دقيقة
تعشش اسفلها كائنات سوسية .. مشنة عيش .. زير احمر جاء مع
الجاموسة ليلة دخلتها .. عريانة الجسد ممددة الى جواره .. على
ان دماقه ، بحكم دوامت التراب السبخية ، الـى تلفه عاصفة ،
يقيم السراية الغافية من تصورات خارج احجار الجدران المهرئة ..
السقف .. اعاد القاب الناشفة المتعامدة مع عروق الخشب
السنطى .. يراها الواح املسأ سماوية الطلاء الزيتى مزدانة .. وفي
صحوة ضمیر طارئة .. يسمع نفسه .. تلك كانت أيام .. كانت
الدنيا .. دنبا .. لم يعشها كما يعيش الرجل مع امراته .. في لقاء
لحمي متعاشق صميم .. انتقلت الايام .. اليه .. عبر روى واحلام
وتكشفات صوفية قاتلة .. عبر احاديث عجائز الفلاحين .. عبر
احجار السراية القائمة لاتزال .. لكنهم .. الملائكة الفلاحين يربطون
حديثهم عن السراية بالعفاريت .. يؤكدون كاذبين كعادتهم انها
لسكن السراية .. وأنهم شاهدوها وسمعواها داخل السراية ..
.. ذراعه واهنة ، ممتدة ، او ملقاء .. تحت رأسها .. لم يشعر

بالتنميم يسرى فى أعيصاب اللراع ..

احس بذراع ملقاء .. محصورة ومحاصرة بين رأسها وبين المخدة ..
كان قد أصر على ان يكون فى جهاز الدخلة شرط اساسي ، لم يستطع
اصهاره من الفلاحين .. ان يفهموه .. عرضوا شراء حمل صوف
للقططاء بدل اللحاف ، عددوا اسبابا بدت لهم .. وحدهم .. معقولة
.. في ذهنه .. ماذا يكون الفرق بيته وبين اصهاره الفلاحين اذا لم يكن
قططاه لحافا .. في سريرته انه لا فائدة من تعداد مزايا اللحاف ..
المسئلة انهم لم يدخلوا لحافا ، بيوتهم ، وعلى العروسة ان تفهم ،
او على الجاموسة ان تتعلم كيف ترمي .. عاش اجدادها خسدا
وابطاعا فى سرای اجداده .. هذه المرة واحدة من الفلاحين تدخل
السرای زوجة لواحد من سلالة المفتش .. مكان يجب ان يحدث
ماحدث .. مكان يجب ان تنزل الى بيت الفلاحين لتأخذ منها الك
حرمة .. لا يهم ان تكون فقيرا .. اصلك هو الاساس .. انت ابن
اصول .. وهل ضاعت الاصول فى هذا الزمن الملعون .. ملعون ابوه
رجب العجوز .. ردد امامك يوما .. اصلك .. وقتك .. الحقيقة
انى لم افهمه .. لم افهم مكان يقصده .. غلتها الملعون الخبيث
بكاملات الرحمة .. على ابيك وعلى جدك الكبير .. مسلعين هؤلاء
الللاحون الخشاء .. اصلك وقتك ..

حكمة جبانة اطلقها فلاح بيمه لا اصل له ..

.. الجاموسة تسحب ساقها .. بحذر محسوب .. هرتها اولا ،
تريد ان تحدد مدى التمسك بها .. حركتها .. ببطء انسى ساقها
من بين ساقيه .. سقطت ساقه على الحصيرة .. ما آلتنه ساقه قدر
ما غشيتنه رهبة توقع الخطوة التالية .. في راسه حطت كل الحجرات
المهجرة المظلمة العنكبوتية - استرح .. الايام - تقصد الليالي -
آتية .. كثيرة ..

.. اللمة الجاز شدت عينيه .. رجاحتها غريبة .. هنا اضاءت
الكلوبات يوما لا يد .. رأسه داخلها يعمل .. يحاول ان يتبعين السبور
المختلفة الابحاء ، داخل صوتها .. استرح .. ماذا ت يريد هذه الجاموسة
.. اندر راقدا على ظهره .. بدمائه وحده يحس جسدها الى جواره
.. جسد جنی خرافي .. يخترق قوالب الجدران الحجرية .. ينعتق
خارج بنيات السرای .. ينتشر في الفضاء الليلي الفاضل لحظات
الاف السنين .. الفيطن الواسعة التي لا تبلغ العين مداها .. ترقد

في احضانها القنوات والجسور وعلى حوافيها اشجار الجميز ونباتات
الخلفاء المدبية والنجليل البساطي ..

.. لكن هذا الجسد بذاته اعتلاه يوما .. متى .. لسكان ذلك
احاديث اخرى كالتى يرددتها عجائز الفلاحين حين تجمعهم المصاطب
ومدارس السوقى ومقاعد الطنابير وتراتيب الشواديف .. كان جدك
الكبير مفتشا .. رجب العجوز نفسه .. عن ابيه عن جدته يحدث ..
كانت ركوبته حسانا ابيض كالبراق .. يشن .. يرن .. لحامه
تقطعه قطع الفضة التى لا تصدأ .. ركابه فضة صادقة .. الحصان
يقوده عيدان اسودان في لون الغراب .. الطريق ميسوط واسع ..
وراء المفتش يرمح خفراe التفتيش .. عيد .. فلاخون .. الموكب
دائما .. كعرض سماوى .. الشمس ذاتها كلوب يتقدم الموكب ..
امام السراية .. يمسك العيدان بالحصان .. يسرع ثالث كاسرا ظهره
ليصنع من جسمه سلما بين ظهر الحصان والارض .. عبد آخر يخط
القدم من الركاب ..

.. رجب العجوز يضحك مما ححدث لجده .. يطلق آهه طويلة ..
.. مبهمة ..

ـ كانت أيام ياسى توفيق .. لكن بالذمة المحمدية .. كان جدى
يستاهل .. حد يأكل الفول .. عليهة التيران .. لكن اقول لك ياسى
توفيق يمكن كان جمعان .. قول ياحسن الختام .. الف لك سيجارة
معلهمش .. اصلها سجاير فلاخين ..

.. جد رجب العجوز .. صدر اليه الامر ذات يوم من المفتش
نفسه .. ان يغادر البلاد .. بلاد التفتيش العشرة ..

ـ هو والجاموسة والعيال ويتبته على العمد ومامور المركز ..

ـ المفو ياسعادة المفتش .. ماعندوش جاموسة ..

ـ هو .. ومراته ..

ـ الرحمة .. يامفتش ..

ذلك كان الجسم القروى الدائم الضالة .. منتصب باستحالة
وصعوبة ضيق نفس .. رجلاه الاماميتان .. ذراعاه .. قوسان
مرتجفان بالتسبيح والضراعة .. بينهما وجهه الادمى .. شعرات
الشارب الابرية الكثيفة المغفرة من الف سنة .. تسد مدخلى منخاربه
وتنزل على فمه .. دغل صغير يطل من خلفه وجه انسان .. رجب
انكلاف ..

- الرحمة .. يامفتشر ..

الجلالية العبك مربوطة عند الوسط ، بحبل تيل مهترئ ..
اللون ناحل اغيش ومادي .. الرقعت تعق الجلالية .. تحدد معالمها
خيوط غليظة بارزة .. اللون الازرق الذى كان للجلالية ، محققه تناوب
دورات فلكية .. لكن اللون الازرق هو الآخر يقاوم عوامل الفنان ..
لا شيء يقبل أن ينتهي مختارا .. اللون الازرق بين ثيتي خياطات
الجلالية .. رجب الجد نفسه لا يذكره .. فقط عندما يفرد ثنيتي
الخياطة ، ليقطف القمل الابيض الرمادي الفاتح كحب السمسم ..
الضوء الضبابي الذى يكافح الميه الازرقاء على انسانى عينيه بالكاد
يسمح لرجب ان يتذكر اللون الازرق الذى كان لجلبابه يوم اشتراه
جاهازا من سوق الثلاثاء ..

- ايه ... ده ..

- ده رجب .. ياسعادة المفتشر ..

- ايهه انا رجب الكلاف .. ياسى المفتشر ..

- اسكت .. فلاح .. خرسيس .. هاتوا الطلبة ..

- الرحمة .. يامفتشر ..

الساقان الاصفران الرفيعان الاسودان .. تتحفى جاذتها تحت
طبلة من القشر الابيض الباهت .. تغطيهما مسامير سستنط سوداء
جافة ، شعر الساقين .. ارتعشتا في ذعر .. الرأس الادمية ملفونة
- كالميمية - داخل منديل ملاؤى باهت ، ارتعشت .. العينان
اللثان تفلت منهما القملة السمسمة .. بين ثيتي خياطة الجلباب
الازرق ، دارتا بحجرة مكتب المفتشر واسعة كالجرن .. حيطان
مساء .. تصاوير معلقة على الجدران .. اللون الاصفر يُؤطرها ،
ذهب لابد .. كراسى مرسومة .. رغب كشيف في اون البلح الرايمخ
يغطيها .. قطيفة لابد .. ناظر التفتيف نفسه واقف زنمار ..
الباشكاتب الباهل المقام يدخل منحنيا .. رجب اجال عينيه .. غلب
العمش .. المصر داخلهما .. المفتشر هالة من النور .. لم يحاول
رجب ان يتبع المفتشر .. يسمع صوته .. ليس من اللائق ان يراه
بالعين .. يرى بالعقل وحده .. المفتشر شيء ابيض في ابيض ..
اسقط رجب بصره على قدميه هو ، دوار خفيف الم بدماجه .. ربك
قادره على كل شيء .. قدماه متسمران على الارض .. ليس على
الارض .. تفوصان داخل الشيء الذى يغطي ارضية المكتب .. شيء

طري ساخن قليلاً .. رجب لم يحس الطراوة والدفء باعصاب باطن قدميه .. بطن قدميه ترقد في شقوقها سيور من طين ناشف ، اذقل اليه بالوراثة من جدود لا يذكرهم .. بعينيه المفتشين احسن الدفء الناعم والطراوة ، ما اسم هذا الشيء الذي يفرض ارضية مكتب المفتش .. العلم بحرة واسع يارجب .. يموت الانسان لا يتعلم كل شيء ..

ـ هاتوا ااطبلة .. تأديب له وعبرة لغيره من الكلافين ..
ماذا تفعل يارجب .. لم يفكر حتى في ان يتطلع الى السماء ..
ماعون حفان الفول الذي اقتطعته من علية الثور .. الشيطان شاطر .. لكل ذنب عقوبة ..

شبيغ غفر التفتيش بجلاله سحب رجب .. امام السراية ..
فلاحون .. غراء .. عبيد .. كلافون .. سبياس .. خيل ..
.. صعايدة .. الى جوار رجب نصبووا الواح خشب سميك .. حبال ..
كتانية بيضاء .. واحد من العبيد تقدم بالشاوكش والسامير ..
انغرون كلوا يتطلع .. رجب ملق ببصره الى اسفل .. تصعد الى
شبيغ صورة التراب المدخل ترش الماء .. نملة حمراء صنيرة تجر
شيئاً ابيض في قدر حجمها مرتعن .. تدخل داخل تجويف يطن
قامه اليمنى .. برفع عينيه فجأة .. قد يكون المفتش .. هبط ..
ـ استرج .. الايام .. تقصد الليالي .. كثيرة .. آتية ..

.. براحة كفه .. خروجا من لحظة انتظار ممطولة كنخالة لا تبلع
العن آخرها .. بمر بيده على صدرها .. تقف على نهادها .. بناء على
جنبه .. يحاول ان يتحكم في تصوراته .. ان ينسى ماذا حدث
للبني .. الملعونة .. ترقد الى جواره ، كانها ليست زوجته على سنة
الله ورسوله .. واجبا عليه ان ياتيها .. جبهته ملتهبة .. يترقبه
برصدها .. يحاول ان يفسر كل حركة من حركات الجسد الخرافى
الذى يطهد هو الى جواره .. كان جسدها قد تحول الى سراية مقلعة
الفتحات .. يلف حولها فار ميضة ويدور .. ضمها اليه .. انتظر
ان تفعل شيئاً .. ان تزيع يده .. ان تنفع بتنفيذ صبر ان تقطعني
كالنار .. بكلماتها الغريبة .. انتظر ان تسمعها تعيد : استرج .. الايام ..
ـ تقصد الليالي .. كثيرة آتية .. لو أنها فعلت لامطاها ظبره دايم
بنفسه الى رقاد .. لم تفعل .. كان قد ايقظها .. التفت اليه ..
ضمتها اليها .. انطلق ذهنه .. محاولا ان يفسر التغيير في سلوكها ..

احس جسدها .. عريانا ساختا .. يضفط انفاسه .. ملعونة كأهلها
 .. هذه الجاموسه .. ت يريد ان تقضى وطراها .. عليه ان يقول لا ..
 هذه لحظته هو .. لن يخضع .. من حق الرجل ان يكون رجلا ولو
 لحظة واحدة في حياته .. ان يقول لا .. الملعونة ت يريد ان تفترس ..
 ان تنتوش .. جاموسه كأهلها الفلاحين ..
 - الف لك سيجارة ياسى توفيق .. ماتعيش لهم .. خير ربنا
 كثير ..
 - السراية دى ياسى توفيق .. ياما شافت عز .. لكن الدوايم
 لله ..
 - يا اولاد الحرام .. منضحكوش عليه .. دا سى توفيق .. ابن
 ناس .. لكن اباما .. كان جده البعيد يقول للشىء كن فيكون ..
 .. هي تعذبه من تهوياته .. تحضنه .. كف يدها الخشنة تمر
 على قناعة ظهره .. بالاطراف الداخلية لاصابعها الخنصر والبنصر
 والواسطى والسبابة .. تضفط .. الظلام يزحف داخل الحجرة ..
 سحلية تمر على الجدار حول اللبمة .. الفتران حركتها لا تتوقف على
 السقف .. على الجدران .. فوق الحصيرة نفسها .. يحس ان شفتي
 زوجته مزمومتان .. حركة دخول الهواء وخروجه من فتحتي انفه ،
 مسموعة : شىء كالفحى .. هو الان سيد .. سيد بارادته او برغمه
 لا يفهم .. عليه الا يعطي .. الا يعطي عن عجزه .. عن
 قرته .. هذه لحظته هو .. ان تزحف الدنيا على ظهرها اليه .. ان
 تطليه .. ان يتمتع .. ماذا كان يفعل الجد في الليل .. لكن انت الذى
 بدت ياتوفيق .. معها الحق .. اي حق .. الحق الوحيد ان تحرق
 هذه الملعونة .. ان تشعل فى جسدها حريقا .. حق للمرأة ..
 ياتوفيق .. ان تحصل دائمًا على رجل .. كلام فارغ .. رجل من
 وأمها .. انظف نور المصباح فى طرقة كقصبة البرغوث .. لا شيء
 يهون فى صمت .. .

- توفيق .. توفيق .. هنتم ..
 لم يدرك به يجىء ، سينام ام لا .. هؤلاء الفلاحون : الخباء .. لهم
 حديثهم .. يلعنون الكلام .. تسأله ام تستحثه هذه الجاموسه ..
 تندف بسؤال لا جواب عليه توازيا - معا - كالخطين .. ركز ذهنه
 بهدف ان يتخلى عن السرحان .. انه هو السيد .. عليه ان يفعل
 ما يفعله واحد من سلالة المفتش .. كان الجد رجلا لا بد .. يطلب الجاربة

بالاسم .. الجواري والحرير تملأ السراية . الجد كان يقوم بما تفرضه عليه فحواته . ثم يتغاضى يده من المهمة بعد مشواره .. عليك ياتو فرق ان تحى امجاد السلالة .. ياجدي .. سليلك توفيق .. بلا تفتيش .. بلا نظار وقف .. بلا عمد .. بلا خفراء .. بلا عبيد .. يحيى امجادك .. ضبط نفسه ايضا ، وهو يوم بعيدا عن الرسالة .. احتضنها بلا سابق انذار .. ضفت بذراعيه .. اتبه الى ان دماغه وحده هو الذى يعمل .. جسده فى واد آخر .. جسده لم يساير فكره .. بالتحديد فكره وحده قرر الاستجابة .. فكره وحده ، لزحزح عن موقف الامتناع .. او ان جسد توفيق اكثر دراية بتفريق منه هو ذاته .. تحددت معركة توفيق .. زححة جسده الى الموقف الجديد .. احياء امجاد المفتش .. خيل اليه ان جسده لسكان آخر .. تشم شعرها كلازمه من لزوميات الرسالة .. آثار جاز .. كاد نكره ان ينضم الى جسده ويرفضها .. سبق ان امرها الاستعمال الحال .. تمشيط شعرها .. كتساء الفلاحين .. زوجة توفيق سلبا ، المفتش ليست كتساء الفلاحين وان انتسب اليهم امرها الى الله .. تجمع بين الفراغ لشراء حق فازلين بقرشين من بائع طاف .. اتعد بانفه عن شعرها .. دعك انفه فى جسدها .. تملكته الرغبة ان يسرى مع الجاموسة كما كان الجد يسرى مع المهرة الى نهاية المشوار .. الاذرع الاربعة تضم الخطين التوازيين .. لكن شيئا فيه هو بقى هامدا .. رافضا .. متزوبا .. منكمشا على ذكريات رملبة يغوص فيها لا يبدو منه شيء .. الفراعة اليه منه هو ومنها هي .. الذكريات الرملية الناعمة المنهالة لا تزاح .. الذى لا يسمى راقد تحت الرمال التاريخية .. العرق الساخن ينسال باردا .. يختلط مع الصلوات المرقوعة لاله لا يستجيب .. أصم .. اخرس .. اكتع .. طفل .. لا مبال لا يدرى مايدور حوله .. لا يدرى دوره التاريخي الخالد .. يلげه شيء كالشلل .. لكنه ليس شلل .. توفيق متوسلا .. متسللا .. هذه لحظتك يا صاحب القام .. لاتخلل توفيق .. توفيق سليل المفتش .. المفتش الذى حكم عشرة بلاد .. ارضها وعمدتها وناسها .. لا يمر فوق قيطناتها غراب دون اذن منه .. فى سرايته الحريم والعيبد .. يطرد ويحد ويكوى النار .. يا صاحب القام لا يهم ان كانت المركبة جاموسة وليست مهرة .. يا صاحب القام انك آخر الامر مني .. مني انا .. فيك مافقى من امجاد ..

انك انت انا .. لا تقرب انت الآخر ..

.. ازاحته بعناد صبر .. عاود محاولة احتضانها .. بيدها مرت على موضع الفرع منه لو انه بقرة .. صفحة مساء مستوية من غير سوء .. تعمدت ان تضيّعه دون كلام .. اشهدها على نفسه .. اعطته ظهرها .. حاول ان يستديرها .. ثقيلة .. ثابتة .. كالشمس على حافة يوم .. ينقضي .. نظيرة .. نظيرة ..

- استرح .. الايام .. تقصد الليالي .. آتية كثيرة ..
.. شدّها بعنف .. قارزا اظافره الصفراء الجافة في جلدّها ..
امسكت بيده .. بيده الثانية فصل جديلة من شعرها وشدّها ..
بقرف امسكت بيده الثانية .. احسها قوية .. القى برأسه على جسدها وبأسنانه كر .. انتصبت نافضة جسدها فسقط - كبعض التراب - عنها .. القى بطوله عليها .. انحرفت قليلا فسقط على الحصيرة .. ساكتا ..
- جاموسة ..

- مش ه .. أكلم ..

- زى اهلك الفلاحين البهائم ..

- احسن منك .. ومن اهلك ..

- جاموسة .. بنت جاموس ..

- احسن منك .. ومن اهلك ..

... من بين الجفون .. بقضاء الجلد مصفرة .. طاش سهمان من رص .. الظلام تطفع به الحجرة .. احسن الظلام تقليلا طبينا بخط عليه .. بسـ منافذ انفاسه .. احس الحصيرة تحت جنبه .. سقف الحجرة .. كان الواحاتية سماوية برسوم الملائكة .. ما كان امامه الا ان يبيعه .. ليس بالتحديد ليتزوج الجاموسة .. ليشتري كيلات الدرة .. الشياطـ .. ماذا كان يفعل .. لو لم يبيعها لسرقها الفلاحون .. البراغيث تزحف كطوابير النمل على جسده .. الحجرة تضيق .. جدرانها تقترب .. تكاد تنطبق .. سقفها يهبط .. اجزاء كتليلة من الظلام تتنقل امام عينيه داخل الحجرة .. لفحـات من هواء بارد اسود .. توم على وجهه .. دعك عينيه .. انطلاقات مضيئة لامعة تسبح في الفراغ الاسود .. اصوات انهـارات تطرق حـه .. كبروق الرعد التي تصاحب نوبات الشـاء المـرق .. رفس برجلـه ..

قعد القرفصاء على المخدة .. سحب اللحاف .. القاه على راسه كخيمة
بحتني بها ..

ـ الف لك سيجارة ياسى توفيق .. ولو أنها مش قد المقام ..
ـ يا اولاد العرام .. دا .. سى توفيق .. ابن ناس .. كانت
السرایة دى زى عش النحل .. الدوام لله ..

ـ قسمة نشووف بعض تانى ياسى توفيق .. بعد ماحضرة المفتش
الله يرحمه .. طرد جدى رجب .. ابويار جمع البلد تانى .. ه ..
يعمل ايه .. مالوش حته غيرها دا ابوه وابوه مدفونين هنا .. تعرف
ياسى توفيق المناسبة .. لامرأة خلدة .. الله يرحمه المفتش الكبير ..
ماكنش من .. ماكنش من بلدنا .. اباهتنا كانوا بيقولوا كده ..
ـ ع النسب ياشاطر .. ياخى مين اللي .. داك

كانت الافنیة ليلة الدخلة .. احسن الاهانة ليتلها .. ان يناسب
الفلاحين ان تفني له نسوانهم .. يحسبوها نسبهم فخرا .. كان على
حق ان رفض الزفة .. ان يسيء اللى جوار العروسة حول البلد ..
ابن الاصول يابهایم .. ليس ملك نفسه .. جدى ماكان يقبل ان يزف
كذلك

.. اصوات هامسة يسمعها في جنبات الحجرة .. هسيس اللحاف
ينزلق من على راسه .. انزلاق اللحاف أم شده عفريت .. هبة
هراء بارد تفتح فمها .. داخل الفم اسود مظلم كخارججه .. العفاريت
التي رأها الفلاحون .. البهایم لا يتحدون عن السرایة الا ويبحكون
عن العفارات .. عفاريت تتحفى في الاشكال والخلق التي تربدها ..
يخصون .. واحدة .. لا يحددون عفريتها او عفريته .. يتفقون على
انها تتحلخ في شكل امرأة عجوز .. متشحة بالسواد الدامس ..
امام الجبهة المبهورة من السرایة .. ترسّل شعرها طويلا .. ينسدل
على جسدها كله .. لا تكف عن تمشيطة .. عينيها - من وراء
الشعر - تبخ شرار ..

العفاريت تلف السرایة .. سحالي تزحف الى جانب القفزات
الفحائية .. فرأن أم عفاريت ..

.. اطلق صرخة .. في حقيقتها آهة .. انه لم يسمعها أحدا
سواء .. حتى الجدران الحجرية .. جدران السرایة .. لم يصلها
الصوت .. او ان الاحجر - هي الاخرى - احيانا تؤدي صلاة
الصلوة قى الجنائز المهيبة .. وتشارك الشمس فى تشبيع ليل
طويل .. لتدور التورة ..

.. سطح المسجد الحجرى متند امام عينيه امتسارا بدت له
فسحة .. بقدميه داخل الخف الشقافى بالجلد والنعل ، يدور فوق
سطح المسجد .. مطلا على القرية .. ذيخته الليلة تحديدا ..
نهاره هو لم ينته بعد .. مغريه تمسك بشمسه خيوط صفراء ..
تحتفى وراء سحابات شتوية داكنة ..

.. من بين الجفون .. يضاء الجلد مصفرة .. ينطلق سهمان
من بصر .. سطوح دور الفلاحين .. مللاصقة .. كل سطح يسلم
للتانى .. لا حاجز سوى اطواق الجلة الناشرة .. عيدان قش الدرة
خطب القطن .. اكوام الدريس والتبن .. تجاوز يبصره السطوح ..
اشجار الكافير والصفصاف والتوت والجميز .. جماعات ابى قردان
ظائفة .. غيطان واسعة تمتد مع يصره حتى تلتقي بالسماء .. هذه
الفيطان كلها حكمها المفترش .. وقف يبصره عند السراية .. اندار
عنها فى غير مودة .. تلتف يبحث بين سطوح الفلاحين .. هذا هو
سطح ابى العينين زوج نظيرة .. نظيرة لا تحرك بين صدره ثامه برغوث
عادت تمشط شعرها بالجائز .. ابى العينين من وامها وهى من وامه
كان لا بد لنظره ان تتزوج .. تقدم ابى العينين .. اولاد الفلاحين
ترتاحون حول حنفيات دوره المياه .. ظياط وعراك وشتائم ...
بهائم كاجدادهم .. لن يكف عن محاولة منهم من غسل ارجلهم من
حنفيات المسجد .. المسجد للصلة وحدها .. عندهم الترعة
يفتسلون فى مياها مع الجاموس والعنجل والبقر .. اسمه يتردد
بين الاولاد المتجمهرین حول حنفيات دوره المياه ..

- ياشيخ توقيق .. ياشيخ توقيق ..

- وله الشیخ توقيق نازل لف على سطح الجامع .. مش عاوز ،
بدن المغرب ..

- يا مفقل أصله نسى العمة ..

- هوه .. مش عاوز يجوز .. تانى ..

- نظيرة .. توبته ..

- يابن الكلب .. م تفكريش بالحرمة دي ..

- ه .. تعمل .. داجل ..

- على الطلاق من دراعى انت طور .. نظيرة .. يابنى .. مهرة

.. بس ياخسارة عايرة خيال ..
 - البركة في أبو العينين .. غير حكمة قد الدنيا ..
 - اللي مايعرفش يقول عن ..
 - يابهائم .. انتو في بيت ربنا ..
 - اسكت انت يادف ..
 - يا أخي سيبك منه .. اصله .. حمار شفل ..
 - اسمع .. ماناخد الطور ده .. نسيه نفسين حشيش .. نور
 دماغه شوية ..
 - يابني على الحرام .. ده يعكتن بلد .. ليخليلها ليلة قطران ..
 لو اسطل يقول ودوني الغيط اعزق ..
 - مساء الانس .. ياشيخ توفيق .. يابن نظيرة ..
 - يابن الكلب .. م تفكريش بالحرمة دى .. أحسن على الحرام
 دماغي يدوخ ..
 - امشوا .. ملعون ابووكو .. هو هنا محششة .. ياولاد الكلب ..
 - خشن باراجل .. جوه الجامع .. احترم نفسك ..
 - ياولاد الكلب .. م كله جامع ..
 - باراجل انت كبير .. احترم نفسك .. دى اسمها .. دورة
 ميه .. فاهم .. دورة ميه .. نتف ونتف ونشعف فيها كمان ..
 - يا أخي سيبك منه .. الناس لما بتكبر عقلها بيعرف ..
 - ياشيخ توفيق .. ياشيخ توفيق المقرب وجب .. أدن ياشيخ
 كفت ..
 - شخ الكلب في حلقت وحلق أبووكو فلاحين بهائم صحيح ورحمة
 جدى .. مائى مدن ..
 بهدوء تو سط واحد من الفلاحين سلم الجامع وردد كلمات الآذان ..
 توفيق لن يؤذن مغرب هذا اليوم .. شاع التفتيش ببلاده العشرة ..
 لكنك ياتوفيق ماتزال حيا .. لا تستسلم .. الليلة ليذنك .. اضر بهم
 ضربتك الأخيرة .. الفلاحين الكفرة .. يربدون أن يكسروا الدرجات
 التي خلقها الله .. القرية سطح واحد ساكت .. ليل الشتاء العتم ..
 السكوت يحط على كل شيء .. على الغيطان .. دورة المياه ساكتة ..
 انصرفت الجحوش الرافسة .. يقف لحظة تأمل .. من بعيد ..
 انشقت شعلة لمب خافتة .. من السراية ذاتها .. اللهب يزحف على
 الاعشاش القش اطواف الجله التي زرعها الفلاحون حول اسوار السراية ..

النار تمتد الى السطوح .. قش الدرة والارز يشتعل .. النار
 تتنقل من سطح الى سطح .. الحطب وفروع الاشجار الجافة الملقاة
 على السطوح تقطقق بالشرر المطابير .. حوائط الجلة الناشفة ..
 الدرس .. اكوان الدرة داخل افلقها .. النار تنفذ الى داخل
 البيوت .. تحرق السطوح .. النار داخل الزرائب تشوی الجاموس
 والبقر والحمير .. تسقط على رءوس النائمين .. جراءكم يابهائم
 .. يالله كلاك ضلال .. النار تصعد في كتلة واحدة كبيرة الى السماء
 القرية كلها كتلة لهب .. النار تزيّم العتمة .. اشجار الكافور العالية
 بفعل ضوء العرق تلقى ظلالها كالاشباح الراقصة .. توفيق لهمث
 .. تفصّدات العرق تفطّي جبّته .. التفت الى سطح المسجد ..
 احس بدوار يلف بدماغه .. يتلمس في الظلمة الحالكة موضع تدميه
 بتحسّن خطوطه .. يبحث عن السلم .. كل شيء ساكت مظلم ..
 ببطء وبحدّر ينزل درجات السلم .. شفاته مزمومتان .. اللون
 الحريقي ارضاه تماما .. ترى هل سيحدث ذلك حقا .. اطلق سحّة
 فارغة عالية مسمومة من غير احد ..

- ٣ -

النجوم مغولة هناك في الاعالي وراء ستائر كثيفة من سحب
 مظلمة .. فوق القرية قبة كبيرة سوداء .. هبات ريح ثلوجية كالابر ..
 قهقر اوراق اعواد البرسيم الفاقية في الفيطن .. تطرد الذئاب والقطط
 البريوي داخل جحور طويلة متعرجة .. ضفدعه تائهة شريدة مسطولة
 تطلق في الفضاء الخلوي الدامس تعبيا منفردا كاداء الشهادة في
 ساحة قضاء فارغة .. الاكتان مقلقة على داخلها .. في حواري
 القرية الطينية ، الظلام حواجز متراصة من الطين .. يشرخها بصيص
 مخنوّق منبعث من فرجة باب او من بين هلفتي شباك .. مخلوق
 ادمي بأكتافه الضيقية .. بحدائه الشقافي الجلد والنعل، يشق فصل
 الشتاء اجبهته الصفراء المرتعشة .. يتلتف وراءه في حذر عميق ..
 يخشى اشياء لا براها ، مائلا امامه وخلفه تقينا .. يتحسّن جنب
 حسابه التحول البفته .. يطمئن الى علة الكروت .. م عليما
 بأطراف اصابعه لم ير كيف انطلقت من بين اصابعه وكأنه يقرأ ..

ماركة الهلب مرسومة على العلبة الصغيرة .. هنا الذى كان اسطيلا
للغivil العربى الاصيلة ، غدا شونة حطب .. شونة عالية .. جمع
اىام طويلة .. الجاز يملا صفيحة ينتظر .. لكل كتاب اجل ، الليلة ..
سترى من يضحك .. لم يعرف لم او كيف انطلقت من بين اسنائه
ضحكة متربصة .. هم ان يلتفت وراءه ، خشى ان تصطدم عيناه بواحد
من الفلاحين .. كالشياطين يملئون كل مكان .. المصاطب ..
الفطيطان .. دورة مياه المسجد .. القاعات العطنة .. اسرع من خطواته
.. الخشية ان يكون احدهم متعقبة .. لا تفارقه ، اولاد الكلب دورهم
مقاتلة .. قطة ففنت عبر الشارع من سطح الى سطح .. ومضة رعد
شتقت قبة الظلام فوق القرية .. كلبة عصافة من مكمنها لصق
عنية باب .. نبحث الزول المتحرك فى الظلام جرى متخلدا طريقه الى
جانب الحيطان هذه هي السراية .. ترقد مستسلمة هنا كانت البوابة
الكبيرة .. باع خشبها ام سرقه الفلاحون .. المفترش بنفسه وقف هنا
من يدرى .. لعله وقف على نفس الوضع الذى اقف فيه انا ..
حضره المفترش وقف هنا .. جلد الفلاحين .. ضربهم عراة بالكرناباج ..
القدمان تصران البوابة الكبيرة .. الوجل الدينى ابرز مشاعره ..
مزبج من الخوف والحنين والوحشة .. واه من التصميم .. لم
ير امه .. نظره لو لم تكن فلاحة .. انتقاض لا ارادى يلفه من داخل
صدره .. توقف .. التفت وراءه .. دعائمه ندور .. يكاد يقع .. جده
يقف امامه .. ابيض فى ابيض .. تماما كما كان يحكي وجب عن
أبيه عن جدته .. مهيب الوجه جلالبيه .. يبتسم لسلبه ..

- جدى .. جدى ..

- .. توقيق ..

سافعلها الليلة .. ساحر قهم ..

- .. اعرف ..

- .. جدى .. جدى .. هل تعرف .. لا تتخلى عنى .. أنت
تشير .. قيمت بآحدى .. تطلب منه ، ان انتظر حتى ينتصف الليل ..
كانت الفكرة في نالي .. حتى ينام الفلاحون .. سليك فيه من تلك
حصافتك .. لاتقلق بآحدى .. هل صدقت انى ارضى بهذه الاهانة ..
اخرا خادم مسجد للفلاحين .. خادم مسجد او مؤذن بآحدى لابه ..
ذالك ذنب حفيد آخر هناك فى مصر .. سؤال بآحدى .. نظرة ..
آه لا تعبس .. ارجوكم لا تتركنى .. الفلاحون لا يعروفون انك مقيم فى

السرایة .. آه .. نسيت ان اسالك .. آم انتى سالتك ونسيت
الجواب .. ام انك لم تجب على سؤالى كنت اسالك عن نظيرة ..
ارجوك لاتعس .. لا احتمل ان اراك حزينا .. انت تدرى كم تحملت
من اجالك .. انا وحدى لاستطيع ان اعيش الا بك .. باقى السلامة
هناك في مصر .. افلانك ياجدى لا تعرف كل احفادك في مصر .. الخطأ
خطاهم .. انت لم تجب عن سؤالى .. سالتك عن نظيرة .. آم انك
اجبت ونسيت انا .. انا انسى احيانا .. احيانا قليلة ياجدى .. جدى
انك تبتس .. انا سعيد ان اراك تبتس .. لافتوك فكرة واحدة
ولو كانت طارئة .. لكن لا يهمك .. انا اعرف ان الفكرة من
حقدتهم .. انهم يحددون عليك انت ياجدى .. لكن لا يهمك .. منذ
مئتي اقمنا لهم وزنا .. هؤلاء الفلاحين البهائم .. بحقدتهم يحترقون ..
ما معنى ان يمصمصوا بشفاههم كلما مررت عليهم .. ما معنى كلمة
اطف ..

.. آه ياجدى انك لم تجب عن نظيرة .. انت الآخر تنسى .. هذا
حسن .. كنت اظن سليلك وحده هو الذي ينسى .. اكتشفت الان ان
الجحد العظيم هو الآخر ينسى .. من نجحهم لابد ان يشاركونا نقائصنا
ذلك شرط .. انك - ولا تؤاخذنى - ياجدى لست الله .. قد تغضب
قليلًا .. لكن لابد ان تتصارح من حين لآخر .. ذلك مفید ياجدى ..
انا احب ان اصارحك لا اخفي عنك سرا .. شئون السراية مشتركة ..
حضرتك وانا مستولان عن السراية .. ثم لانتي احبك .. لذلك تنا
اصارحك حتى لو اغضبتك ذلك .. من يحب انسانا لا يخفى عنده
شيئا .. حتى الهمس الخفي الذي يلم به نائما .. ليلة قدر هادئه
ياجدى صدقنى .. يارجل كنت احدثك عن نظيرة .. عن نظيرة ام عن
الفلاحين ام من الديون العقارية .. بالطف الله .. الديون العقارية ..
صدقنى ياجدى عمرى ما فهمت هذا الكابوس .. الديون العقارية ..
اولاد كثيرون لك استفادوا .. اى رحمة الله .. لا اعرف .. لا اعرف
لم يكن شاطرا ، لم يستفاد من الكابوس .. مات .. ماعلينا ياجدى

.. قل .. خبرنى .. كنت اسألك عن ماذا .. حقاً أنا ولد شقى
تعيس .. اسألك انت ان تذكرنى .. كانك تابع .. هذا خطأ الكفار ..
انى ابن ناس .. قد لا اكون ذهبت الى مدارس .. لكنى سليل
المفتش .. ان اردد كلمة عيال أفلاحين .. توفيق لطيف .. بالمناسبة
ياجدى يبدو ان الليلة ليلة القدر .. اعرف كل شيء .. يكتشف
كل شيء .. كلمة لطف .. مامعنها ياجدى .. تعرف .. أقسم ..
او .. كدت اقسم لك برحمة جدى ياجدى .. لا .. لا .. دعنى
ارتب افكارى .. لا احب ان اترك فكرة لا اطرحها امامك لابد للانسان
من صدر يلقى برأسه عليه لابد للانسان من آخر يسمعه ويسمع
منه .. حمداً لله انك معن ياجدى .. انت تصدقنى .. لابد انك تشتك
في كلماتى بعد كل هذه الصحبة الطويلة .. لابد للانسان من آخر
يصدقه .. نعم يصدقه ياجدى حتى لو قال كذبا .. ذلك شرط ..
نظيرة مثلاً اريد ان اسألك عنها .. هل كانت أمينة .. لاتبعس .. لاتبعس ..
او توصل اليك .. ليس لي سواك .. لم يعد انت الآخر لا تعرف
من احفادك سوأى .. على الاقل انا اكثرهم حاجة اليك .. حقاً ياجدى
انا في حاجة اليك .. والا كيف اقضى ليالي الطويلة في هذه السراية ..
لابد للانسان من ونيس .. لن اجد اخير منك .. عشت حياتى من
اجلك .. لا تظننى ضقت بذلك .. انت جد عظيم ليس لكل الناس
اجداد عظام .. للذك حياتى كلها من اجلك .. نادام الجد عظيم ،
ليس يكثير ان يهب الحفيض له حياته ، الانسان العظيم هو الذي يبحث
له عن جد عظيم .. لا تبتسم .. لست مغوروا حين وصفت نفسى
بالعظمة .. عظمة الانسان من عظمة الهدف الذى يسعى اليه ..
ويندوب فيه ويضحي من اجله .. حياته كاهاها .. يضحي من حياته ..
كلها .. توسلت اليك .. لن اقول تذكرنى .. ان توافقنى .. الانسان
في حاجة الى من يوقفه من حين لآخر .. الله وحده ليس في حاجة الى
من يوقفه .. ذلك ان الله ياجدى ليس له جدود .. تعيس .. اعرف ..
كنت تتوقع ان اقول ان جدى هو الآخر ليس في حاجة الى من يوقفه ..
عند حده .. لكن .. ياجدى .. انت تعرف .. نظيرة ياجدى ..

صبرك على انت تعرف ماذا حدث في تلك الليلة .. قير معقول انك لا تعرف .. لابد انك تمزح .. يارجل عفوا .. هله اول مرة اخاطبك بهذا الاسم .. يبدو اننا صرنا صديقين .. لابد للانسان من صديق يحدثه بلا كلفة وهو نائم .. انت جدي العظيم موافق .. حماسك الله .. والا بالله قل لي كيف تحتمل الحياة اذا لم يكن للانسان صديق .. لكن دعني اصارحك انت تحفظ معي احيانا .. حقا الحدود بيننا قائمة .. لكن الصداقة يعيتها التحفظ .. قل اذن مارايك في نظيرة .. مارايك في الفلاحين .. في عيالهم .. اعود بالله .. ولاد حرام .. هل قلتها هل قلتها انت ام خيل الى اني سمعتها، احيانا قليلة يخيل الى اني اسمع كلمات يرددتها هواء السراية احيانا يخيل الى اني ارى انسانا ليسوا معي .. تظن صمموا على ماذا هؤلاء البهائم .. ان ازف الى جوارها .. البس جلابة جديدة اقف الى جوارها .. تلف حول القرية .. كدت اخضع كنت في لحظة الضعف هذه .. لكل منا لحظات ضعفه ياجدي .. اللم تضعف مرة واحدة في حياتك لا سمع الله .. لاستطيع ان اقول انك تبالغ .. لكن الذي لا يضعف ليس انسانا .. جدي عموما دعني اصارحك .. حضرتك تخليت عن كثير من صفات البشر .. انك تقترب ان تكون الها .. هذه كارثة شخصية بالنسبة لي انا .. كيف اسامرك .. امدادك .. ان القى برأسى على صدرك .. ان اكذب عليك واتوقع ان تكذب على .. ان اعترف امامك بمناقصى ان تشاركنى ناقصى .. ان اسألك دون حرج .. هل حقا ياجدي ت يريد ان تكون الها .. انى اشعر بالحزن .. الانسان فى حاجة الى انسان .. الى ونيس .. الى اليف .. وليس الى الله كنا قد اقتربنا .. ضحكاتنا كانت قد طرقت في فضاء السراية .. حسنا ياجدي انت ت يريد ان تكون الها .. انا لا اعترض .. لن اعترض ياجدي .. لكن صدقنى انا حزين .. لاول مرة اشعر بالحزن .. بالوحدة فى ليتنا هذه .. ان الالهة لا يصادقون البشر .. البشر فى حاجة الى بشر .. كنت قد رتبت ايامى .. ان

تكون سرى .. سعادتى نجوى .. انت لاتريد .. جدى .. هل انا
 اخطأت .. لقد عشت مكتفيا بك .. هذه السراية الكبيرة الواسعة
 ما كانت تخيفنى اطلاقا .. لانه آخر الامر سأجدى .. اجدى فى
 انتظارى .. الفلاحون فوق المصاطب وقباب الافران يتراحمون
 كالنمل .. انا مكتفيا بك وحدك .. اصبحت حياتى كلها كنت « بكر
 العين » عدل القرية كلها .. هل كتب على آخر الامر ان اعied ترتيب
 امورى .. كيف حدث محدث .. كيف وقع هذا الشرخ بيننا .. الا
 يسكن ان يتحدد الانسان مع غيره حتى لو كان هذا الغير .. جدا ..
 ملاكا .. نورانها .. قال الخواجة صادق .. الباشكاتب العجوز ..
 الابن وحده هر الذى صلب .. غلطى ياجدى انى تعودت على غير نفسى ..
 على الواحد ان يكتفى بنفسه دوما .. لكن كيف يكتفى بنفسه ..
 هعوب بعد كل هذا .. كل هذا .. لم انت صامت ياجدى انت صرت
 الها حقا .. نم انت صامت يا الاهى .. مازالت لدى اشياء كثيرة كان
 يودى ان احدثك عنها .. ان ابوح لك بها .. ان افضضها امامك ..
 لبلة ان هربت نظيرة .. تركتني وحدى .. آه ياجدى انى فى حاجة
 اليك .. اوه .. اوه .. لست فى حاجة .. كيف تعيش انت فى
 الاعالي .. مع الصمت المطلق .. مع الوحدة المطلقة .. مع الاكتفاء
 المطلق .. لكنى لست جدا .. لست الها .. انا حفيد .. كنت اود
 ان تبقى ضحكتانا .. نضحك سويا من الفلاحين .. نعجب من مواعيدهم
 السخيفة .. دا .. خدھا خمال .. م هوش خيال وسايسها .. الليالي
 الطويلة كانت متبقة امامنا .. اوه ياجدى .. صدقنى .. عفوا ..
 فلنفتح هذه الكلمة التى فرقت بيننا .. هل انا الذى قلت فرقت ..
 هل افترقنا حقا ياجدى .. جدى .. جدى .. جدى اين انت .. بالله
 عد .. عد كما تحب ان تكون .. الها حسبما ت يريد .. عد وهذا يكفى
 بالله لا تدعنى ياجدى .. اتضارع اليك .. اتوسل اليك .. لا اطيق ..
 انت الذى لى وحدك لا تتركنى هكذا .. عد لا وعدك .. بيوت الفلاحين
 تشغى كخلابا النحل .. عد عد لتفق .. عد لتفق على ان نفترق ..
 ياجدى .. اوه .. لقد تذكرت .. انت تتحدث بلغة الآلهة .. انت

لذكoni .. كنت قد نسيت الرسالة .. الليلة .. أنا أم الفلاحون ..
لترى من هنا سيفتحك من الآخر .. جيبي .. علب الكبريت ماركة
الهلب .. صفيحة الجاز هاهى .. الحطب هاهو شونة عالية جمجم
أيام طويلة .. بالضبط هكذا .. أرش الجاز على الحطب .. الوقت
مناسب تماما .. شكرأ لك ياجدى .. سأشعل عود الثقاب بحذر ..
هكذا ..

عين الحياة .. نظيرة

عين الحياة . . . نظيره :

التراب الاحمر الذى لم يعد احمر الاغبى الضبابى لونا الالاسع
مذاقا . . تشدء من داخل الكانون ، مستعينة بفرع شجيرة خلة
بيضاء ناشفة ، اصابع مكدودة مرهقة . . جافة الجلد متشقة ايدانا
بالتكريش ، تهدل الجلد على العظم ، بروز العروق الزرقاء السوداء
في خضراء كابيه ، ملمس نافرة واهنة في ظاهر اليد ، ثم الاستقامه
الى الابد . . مرة اخيرة وعظمى ، ذات لحظة قابله ، لاشك فيها وتكف
هذه الانامل عن اللعب في الطين ، عن لم الجله . . عن دفس بدور
القطن واللدرة والقمح في بطن ارض الناس ، وتعهدها نبته تطل من
الارض بورقتين ثم شجيرات مستوية العود ، وتسلم الشمرة — دائمًا
— لصاحب الارض دون اعتراف ، اللهم حكمتك .

صهد النار يهب من بين جدارى الكانون ، يلفع ساقيهما ، يملا
ما تحت ذيل الجلابية الشيت التى كانت منقطة بالاورد الاحمر ذات
يوم ، الصهد يحتاج الناطق العليا ، قبة سيدى ذى النون صاحب
الكرامات ، العائش ابدا في ادمفة صبيان ورجال قربتنا لا استثناء
للبنات والنسوان تأمله الاطفال كالطلسم ، يدور حول مقامه المهيوب
الشريف الصبية والبنات ، يضيئون له الشموع ، ليلة الدخلة يدقون
له الاكف والدفوف ، يقرأون له الفاتحة ، يرسمون له علامه الصليب
من بعيد متسرعين اذ يتقدم العمر الغارب ويزحف الموت الذى يمسح
كل شيء حتى كرامات سيدى ذى النون التي لا تنتهي .

هي ليست كالفلاحين ، بالتحديد ليست كنسوة الفلاحين حطبهم
مشون على السطع ، ماعلى الواحدة منهم الا ان تزعق صغيرتها او تطلع
بنفسها السالم وترمى بحزمة حطب القطن او قش الذرة امام الفرن
اللخيز او الكانون للطبيخ هي قدرها العادل خصها بفروع الصفاصاف
والسنط والكافور وشجيرات الخلة الناشفة ، شجيرات زرعها
الشيطان نفسه على حواف المساقى وحدود غيطان الفلاحين وجسور

الترع ، خضراء ، فتيلية الاوراق ، يضاء الزهرة ، كقطع الجبن
القريش التي يأكلها اولاد الفلاحين بيلاش ، هي تشتري - في أيام
المرخاء الوافر - الحتتين بتعريفه ، باصبابها هذه بنت القانون الذي
تقشعد الارض امامه ، تلقمه وقوده ، جمعته بنفسها من الفيطن
عقدرته بجعل : قعدها على قرها ، عافرت حتى رفعت الشيلة ضفطا
من على الارض حتى استقرت فوق يافوخها سند الشيلة بيدها
اليمني باليسرى ضفطت على ركبتها .. شدت جسدها كله ...
كأنها ستلد ... كأنها ستقدر من جوفها بأرطال لحم اذ وفقت منتصبة
على حيلها والشيلة فوق راسها كانت حبات عرق متباشرة على جبينها
.. كانت حبات عرق تجمعت منسالة على قناعة ظهرها ، كان وجهها ،
متتصدا باللون الاحمر الفاقم ، في اذنيها صغير .. على انها لم تحس
طوبلا بالدوخة التي الملت بها ، على جداري القانون تستقر حلها ،
عوود من الدخان الازرق الابيض المتوج ينبعجس من نار القانون ،
يشمل وجهها ، مع الصهد ، يصطبغ الوجه باللون الاحمر المختنق
بالدخان يقتضم عينيها ، ينحدر من ما فيها خطان من دموع ، دموع
لا تشي بفرج ، لا تنبئ بسخط .. في قابل العمر وهي تواجه واحدا
من هذه الكوانين ، سيمهلك الدخان غشاء الانف وتحتل الدموع
بالسائل الانفي ... ستمتد الاصابع المجنفه تحفف بالوهن
منخارها وتمسحها في الجلباب الاسود الباهت بلا اطياف ورد ،
تشرب فتلاته عرقا وترابا وطنينا وبعض الوحل .. زحافات
الدخان تتوزع بين هواء سطوح القرية العر الطليق .. وهواء الحرارات
الضيقة الشعبانية .. تلتقط الانوف نثارات عمود الدخان بما يحمل
من رائحة اعواد الخلة المحترقة ، يتحدد ، ليس بكلمات منطقية او
بleshارات مرسومة ، يرتسم في الذهن معنى ، ولا مسافة - عند
من لا يدرك - بين صاحبة القانون وصاحبها .. يقعان - على اختلاف
الدرجات وتباعدتها - في منطقة ملعونة ، ليست من الدين يسون
طبيخهم على نار اعواد حطب القطن رائفة اللهم والرائحة صافيتها
او على نار وأبورات العجاز البريروس التي تزن في البيوت المستوردة
في حجرات الحصرية ومقرئ القرآن واصحاب دكاكين العسل
والسجائر والصابون والحلوة الطحينية والعسل الاسود ، سادة
قريتنا الصغار .

- قسمتى كده .

لم تسمح الدموع الدخان .. الدفء .. دفء الدموع .. البعيد
الهادئ المتجدد بالسيولة الوانية والمتحدّر عبر الرموش .. أخف
من أن يلسع واعمق من أن يقف عند ملامسة بشرة الخدين في نعمة
خدريّة ممحوّسة محسوّسة متملّة ، غامضة تنتسب إلى الانتصار
البدائي الذي تسجّله المرأة باخر نفس من محاولات المقاومة الشرسة
التي يعقبها غرز أظافرها في جسد الفريسة مع صلوّات الهممّة
المتحشّرة الكبّوّة لا تكاد تبین ، ترددّها جنبات الكهف الذي كان
مظلماً بهيماً قبل أن تخدش ظلمته فتلّات قطن أو معدن تحرق وتضيء ،
ويسد مدخله لوح خشب ويسمّي بيّنا ..
- قسمتني كده .

البناء الحجري الواسع الذي لم لحمها وعظمها وشيدت في ركن
منه كأونتها ، لا تعرف متى اقيمت ، لا تعرف من بناه ، سراية عيلة الناظر
.. الناظر يا اولاد كان يسمّر ودان الفلاحين في الطلبة ، كان يرمي
نسوانهم في بئر مسحور ، العفاريت تملأ السراية ، جدرانها عالية ،
الفتحات التي كانت شبابيك تلمع عليها شمس العصاري أزرق وأصفر
وأخضر ، مربعات زجاجية في حجم الجبنة .. دوالر في حجم فتحات
القليل القناوى .. لمعان يربك عيون الفلاحين دهشة واستفواراً لله
العظيم الذي يخلق مالا يعلمون ، الشبابيك عيون مفقودة في جسد
الحيطان العالية ، تحدق فيها عيون الفلاحين فزعاً من السراية
المجورة .. الصبية الصغيرة تشير والقطف المتهريء فوق رأسها ،
تلف به حول داير الناحية ، مع صغيرات في لون الكركم ، يتسابقن
إلى درقة الجلة ، ساخنة فور سقوطها من بطون جاموس الفلاحين
تلقي على الدرقة بعض قش السكّة ، وبعرض تجمع وتكون ،
تسقّر في المقطف ، في أدمغة الصغيرات المتناسقات على لم الجلة ،
تناسب حجم النساء مع حجم العفاريت داخل السراية ..
الصبية الجريئة وحدّها هي التي غسّامت وقطف
الجلة يعتلى - رأسها ، والقت بنظرة سريعة من فيجوة شباك ، قذفت
بحجر .. في فمهما رأس عفريت مبطوحة تكبر الصغيرات ، يتغير
حشو الفراغ بين اطراف الاصابع واظافرها إلى طين اسود بدل
الجلة الخضراء ، صرن نسواناً لهن حجرات ضيقّة مظلمة رطبة يعرّفن
ويبيّول فيها العيال والمعيز وبلد ويقنس في أحجارها الدجاج والبط ،
الواحدة منهن تنسل - في الليل - إلى سراية عيلة الناظر ، تختلس

عدها من الطوب الاحمر لبناء كانون فرن ، او لالقائه في البحراية ينفع عند الزروم ، في قلب الصغيرة خوف مستقر عائم قديم ، السراية البناء الخراف المتحول المنسرب الحلمي ، يقف عالياً وحده ، تنشأ حوله وتتعدد دور الفلاحين ، كالنعش القديم الهائل الحجم الذي كف اهل القرية عن فرشه بلحاف مستعار من دار مستوره ، النعش يقف ، وحده متسانداً بين المقار، يمثل في فهم اهل القرية وكلماتهم أيام ، مجرد مصمصة مسمومة اذا جاء ذكر سراية عيلة الناظر ، وقد تعمق كلمة ، كل ماتراه العين زوال ، على ان هذا البناء النعشى قد تحول في دماغ نظيرة ، وقد انتهى امرها ، مقدر من يوم الازل الى ان تسكنه الى ، غفرت مشجوج الرأس تتساقط منه دالما قطارات .. دم احمر ..

بالدموع التحدى نفخت الكانون تحت الحلة ، تزرع الدخان المراكب ، تلتهب اعواد المخلة وفروع الصفاصاف ، يسقط على وجهها ضوء احمر ، يورز قسماته ، بالقمامة القديمة المتسخة ، بعد ان سرت العورة سفين لاتحسب ، بعد ان ترقت في كل موضع ، المركونة ، بعد العمر الطويل في الخدمة ، الى جانب الكانون ، امسكت غطاء الحلة النحاس ، رفعت الفطاء ، اندفعت هوجة البخار الساخن ، الماء ينز غلياناً ، في المصرف النظامي الذي ترقد القرية في ظله ، محصورة بينه وبين سراية عيلة الناظر وقضبان السكة الحديد الفرنساوي ، في عز الشتاء ، في ايام برد العجوزة ، الدنيا ساقعة كالارصاص .. مياه المصرف تجمد الدم في عروق البنى آدم ، هي المياه تقطيها حتى العزام ، منحنية تنقل قدميها بحساب ، بطن القدم يضفت وجه طين المصرف ، الطين يبزد من بين أصابع القدمين ، تمد يديها ، تتحسن بهما طين شط المصرف ، تبحث عن منامة من منامات السمك ، حفرة فتحتها ضيقه تعيش داخلها الطيبة .. بلطستان او ثلاث ، على ان الانامل العشر المتكرمة الجلد ، تماسع وجه الطين ليس بحد .. بتدبر ، تتشمم رائحة السمكة قبل ان تلمسها ، الانامل العشر المتجمدة المتباينة لتفطى اكبر مساحة من مياه المصرف النظامي ، متهيبة في وضة اقصر من ارتداد الطرف الى ان تجتمع وتلتقي البدان في شبكة حديدية لاتخترق ، بينهما سمكة كانت تواً آمنة تسبح خلية البال بحثاً عن ورقة عود نسيل ، وهي تصطاد السمك

اكتشفت نافورة تقلب المياه الصافية من باطن الأرض - يومها صرخت
تجمعت النساء والبنات اللاتي أندھشن ، فالصرف في أوقات
امتنانه يتلئ ماء النافورة .. ضحكن .. تشارعن .. تحاسدن
على الصيد .. أطلقن اسمها على عين الماء قبل أن يعاودن فسرد
أصابعهن في لعبة البحت ، وسط مياه - لو لا برد الشتاء - لكان
أسنة . لكنها تسبب القلة الفخار القديمة ، مكسورة الرقبة ،
سوداء بطبقة قبضة يد ، نزعت سدادتها ، خرقه قديمة ، صبت في
كفها الأيسر ، حفنة ملح رشيدى خشن ، ملح لم تشره بالردة الخشنة
أو باكواز الدرة أو بارغفة العيش كما تفعل نسوان الفلاحين ، مدت
يدها بالتعرينة الإيض المثقوب والذى يحمل نقشا تعرف بفطرتها انه
كتابة ، لكنها ، لا تعرف من هو السلطان حسين كامل الذى تحمل
اسمها بين أصابعها ، على ان الكتابة - عندها - كالحجاب .. حضوره
يفنى عن فك أسراره .

هات يا واد يا حسن بقرش ملح ، بس اتوصى ، احسن والنبي ارمي
لك على العربية وامشي .

وينتسم الراد حسن ، بائع الملح الجوال ، وتلمع سنة ذهبية
تراءها زبوناته من النساء والبنات ، فى قرى الجهة وعزبها وكفررها ،
لا تعرف واحدة منهن ، من أين يأتي ، لا يعرفن سوى الواد حسن
باتاع الملح ، بوجهه الاسمر ، بطاقتيه الصوف الحمراء التى يشبكها
على جنب رأسه ، تقطيها قصة شعر سوداء متجمم ، بصدره
المكتشوف ، بصوته ، الملح الرشيدى الملح ، تعرف النساء والبنات
انهن معشوقات حسن ، يعرفهن واحدة واحدة ، يوقف عربته على
راس الحارة ، يملا حفانه فولا مداشوش ، يدسه في مخلة التبن
والردة .. معلقة في رأس البغل ، يدخل بوز البغل في المخلة ، يربت
على كفله ، يضق صيحته ، الملح الرشيدى الملح ، عيناه ترصد أبواب
البيوت ، يترقب زبوناته ، يعرفهن بالاسم ، يحدثهن فى بشاشة
ومن دة وخلو دال ، لكن هناك فى عزبة ملعونة مهجورة فى آخر الخط
على شمال السما ، حظا اسود ، ساق عربته إليها فى يوم شؤم ،
لا يشتري كل أهلها قدحين من الملح .. هناك ، تتوقف عينا حسن
على باب دار بلا سقف ، يطلق صيحته الملح الرشيدى الملح ، يدق
قلبه حتى كأنه سيتوقف .. جسده كله مهيا للشلل حتى تخرج

نجفة بقدميها الحافيتين ، بنهديها ، كفبضتي البد ، بعينيها السوداً وينهاداً
ولا شيء ..

انا اقدر تمثى يانظيرة .. ياست الكل ..

.. بضيف بعد ان يأخذ التعرية يضعه بين شوالين مفروشين على
الدرية ، حفنة ملح ، يتبدلان ابتسامة صافية تماماً ، وقبل ان ينصرف
واداً ما كان العر خالياً يشرث ..
ـ معلهش ، حظى زى بهيمتي ، م علينا ، ازى سى توفيق ، الايام
دى ..

هنا تسمع الابتسامة المشتركة ، تخبطه نظرة على صدره ..

ـ لم لسالك ياواد ياحسن احسن لك ..

ثم وهى تطرد نفسها منسحة من جواره ..

ـ سى توفيق سيدك ، وسيد الرجال كلها ..

يتاملها حسن ، كعبها المدعوك بالحجر الخرفيش .. بزى قدميه
المثلثين ، شعر الضفيرتين يتنطط بالتبادل مع كل خطوة ، تنطفئ
البسمة على شفتيه ، تختفي السنن الذهبية ، يخبط البغل بهيمته ،
رفيق طريقه ، على كفله بود وعتاب وشكوى ، يتمتم .. ياميت ندامة
على اللي حب ولا طلش .. دماغه ، جسده كله .. شى ياح Hasan ..
الملاع الرشدى الملاع .. ياخسارتكم يا بولى .. توفيق سيدك ..
ياميت ندامة على اللي حب ولا طلش ..

في عين العدو ، اقت حفنة الملاع ، لاحت الملاع للحظة مستقراً في
قاء الحلة ، سحبت منخلاً متفسخ الاطار ، صدىء الاسلاك ، قلت
ورقات الرجل المخروطة ، خضراء معتمة ، حمراء بنفسجية ،
اسفنجية ، متورمة بسائل ابيض شفاف مخاطي ، وسارعت باحكام
غطاء الحلة ، لم تقصد ان تكتم نفس الطبيخة ، تنهدت بارتياح قدرى
قديم ، انحنى بتصفاف العلوى ، مدت رقبتها ، نفخت الكانون ،
بعود صفصاف ناشف لا تذكر من اين حملته على راسها الى البيت ،
وسحبت بعض التراب الاخضر من داخل الكانون ، دست لفة صفيرة
من اعواد الخلة .. امامها فسحة من الوقت .. تفقص التوم ..
تحمره في الزيت .. تطش به حلقة الرجل ..

.. خطت داخل حجرة العاش ، البلاص يقتعد ركناً من اركان
الحجرة ، يسد فمه حزمه حباً بحر ، مكفى عليها كوز صفيح .. عليه
سردين قديمة ، لم ترفع كوز الصفيح ولم تنزع سداده البلاص ، لم

تفرغ لنفسها شربة ماء بعد أن تستند البلاص على ركبتيها ، لم تستطع أن تحدد ما إذا — كانت مرتوية أو عطشى ، لم تشعر بالدافع القوى لأن تشرب ، هذا لا يعني أنها ليست عطشى ، يعني بالتحديد أنها ليست كفرانة من العطش ، أى مرتوية .. في بئونة الحجر ، والشمس قد حرفت كل ماتحتها ، وهى في واحد من غيطان الفلاحين تجمع لوزات القطن ، بأصابعها العشر تبدل ، الكف الذى يملؤها القطن المجموع تدسىها فى سبها ، فى ناحه القبالة ، قد تكون جوعى كذلك ، لكن ذلك لا يمنعها من أن تخطف رجلها إلى أقرب قناة بحثاً عن نقره فيها بلاصين من الماء .. لا يمنعها أن تكون حرارة الشمس قد أوصلت الماء إلى قرب درجة الغليان .. لا يمنعها أن يكون نبات الريم الأخضر يبقى وجه نقرة الماء .. لا يمنعها أن تكون الطحالب الصفيرة تشدّد كأنها الطائشة على وجه نقرة الماء ، لا شيء يمنعها عن أن تفرش على حانتى القناة الصفيرة ، تمبل بنصفها العلوى ، ترصد فمها وسط أعلى النقرة ، تصنع من أصابعها الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة ميراها صغيراً .. المجراف قارب من حقيقة صغير ، تُقذف الماء إلى أعلى قدر ارتفاع الركبة مرتين ، تلتقط شفاتها قذف الماء ، تُطبق شفتيها ، تجبع حفنة الماء ، وفي قذفات سريعة متتابعة تتناسق فيها حركة الكف ، ترفع الماء ، وحركة الشفتين ، تلتقطه من أعلى ثم تُنطّق عليه وتُجعّه .. وقبل أن ينده عليها صاحب الأرض حتى لا يضيع اليوم الذي كراها فيه اجمع القطن لا لمرقة النسوان التي يعرفها .. عليها أن ترتوى وتجفف شدقها وتحمد الله الذى خلق من الماء كل شيء حتى .. وأحياناً لنبرد به جوفها .. عليها أن تسد أذنيها عن الشتائم والاتهامات ..

.. عليها أن — تهمهم .. قطيعة الفلوس على اللي عملوها ، والله فلو سكم ياولاد ستين كلب يامساعير م فيها بركة ، ملعونة الأرض ع صحابها ، هتشتروا الشفالة بالقرشين اليومية ، قطيعة تقطضم العيشة اللي عاشينها .. وعادت فاتخذت جلسها أمام السكانون استندت زجاجة الزيت إلى الجدار مسحت السكينة بطرف جلابيتها التي كانت مشجرة ، لم تلاحظ البهتان في لون الجلباب ، امسكت قس التوم المقشر تخرطه بالسكينة ، طاسة التقلية أمامها ، سوداء بطبقات الزيت المحترق والتوم المحترق والبصل المحترق وصدا النحاس الذي كان أحمر يوم اشتراه المرحوم جداً لامها قبل زفاف

الام ذات ليلة لم تحضرها نظيرة بنفسها ، وان ارتسمت في ذاكرتها كل تفاصيلها ، فالماء وان اصطنعت الرزانة وهي تحكى لابنتها لم يفت نظيرة مخايل الرضى وراء الكلمات ووراء قسمات الوجه الذى كان مليحا يوماً لابد ، ماخلاً وجه من ملاحة ..

- قسمتى كده ..

لا تقصد شيئاً بداهه ، البلاص ممتهن لأكثر من منتصفه بالساع الصابع من الترعة والمروق بنقى المشمش ، الطبيخ على الكانون ، غلوة وطش التقلية ، والجائع يأكل أصابعه لا ان يلحس ماعليها من طبيخ الرجلة ، السكين فى يدها ، تدقق فى تقطيع فصوص التوم ، دون ان تقصد ، دون ان تدرى ، علىها مجرد استجابة حسية البناء الراسع الحالى الذى حمل اسم سراية عيلة الناظر ، ما اطلقته عليه هو سوى اسم المخروبة ، للظلام الساحب المتسلل القبض الذى فاجأ عينيها داخل حجرة المعاش لحظة ان دخلتها ، او لعلهاقطعة النى طلبت من تحت الارض تتمسح فيها بشدة وتحك نفسها في الجبه امام الكانون وترفع ذيلها المنقوش الشعر الى اعلى تدفعها عنها في فشعييرة جلدية داخلية عميقة ، القطط فى بيوت الفلاحين العمورة بالعيال والناس قد تكون القرى ، الاخت التى تحى تحت الارض ، القطط مثل هذه المخروبة على رأسها وراس الذى بناها عفاريات مؤذنة او لعله لهذا الخوف الذى يكمن داخلها ولا تقدر ان تنتقد جبارية هرباً منه ، تهرب من المقدر فى ، المكتوب مكتوب ، الى انكتب ع الجبين لازم تشوّفه العين ، لا تفتك هي ان تفر من اي شيء ، رب هنا رب عنان ، رب العمر كله ، للتهوييمات الفامضة الحزينة التي تتلبسها وتستقر داخل دماغها .. تحت الشعر الطويل المضفر الاسود لولا ما به تراب - مع هبوط الليل في قريتها ، تخلو الغيطان والسلك والحارات والمطاطب من النور والناس ، الرجال والنسوان والعيان تفرق مجرد استجابة حسية ، قد تكون فى الضلعة الخرس ، او لعلها مجرد استجابة حسية ، قد يكون أملأها اختناق حرقة يدها وهي تخرط فصوص التوم الى قطع صغيرة في حجم حبة قمح وسارت المدوى الى احساسها ، من اختناق جد الى اختناق روح ، او اختناق لا تدرى ماته ، فزامت واخذت نفساً عميقاً واستغرقت الرب العظيم في سرها وتارهت ..

– قسمتى كده .

لا علاقه بين الكلمة المنطقه واى شئ حول او داخل صاحتها
عليها ترددتها بتأثير – الوراثة او المدوى من امها ، على فزحها تجلس
امام الكانون ، تنفح النار في اعواد الخلة وفروع الصفصاف وتغلى
الماء وتلقى ورقات الرجلة الاسفنجية المبطرخة بلونها الاخضر الاحمر
النفسجي اليمادي ، تخرط نصا او فصي توم ، وكانت الام تلقى
نظرة سريعة خبيثة الى السماء وتحدد الوقت بتدرج كثافة هبوط
الظلام ثم باذان المغرب ثم باذان العشاء .. وفى الالالى المظلمة برصد
نجوم تعرف مواقعها ومواقعها ظهورا واختفاء ، وكان يختنقها تخريط
الذرم ، ودون ان تدرى ، ودون ان تقصد ، مثل ابنتها ، تلبسها
روح مخنوقة حزينة ، حزن ليس لشيء بذاته او على شيء بذاته ،
ما بهما حقا هو الستر ، والحالة مستورة والحمد لله ، ياما عينك
تقصد عينيها هي ، شافت يابنتى ، اقول لك أيه والا ايه ، قسمة
ونصيب ، او لعل النظرة الوانية حتى تبدد عمنا ، او لعل الانقضاض
انتقل مع اون الشعر الاسود من جدة بعيدة ، دلقت ذات ليلة من
لبالي شهر هاتور ، طشت ماء على العتبة ولم تذكر اسم امون او لم
تعجد المسيح اولم تبسم في سرها .

كلمات ممطولة منفمة ، كلعن قبطى ، يصرفة – دون آن يدرى –
فلاح يسلى وحداته في ليل حياض الصعيد ، كلمات لا ينطقها لسان ،
كل خلايا حسد ، صحا من النجمة .. مكسور من وسطه على
شجيرات القطن يجمع بيديه الاثنين اللوزات البيضاء ، كلما امتلا
كفت دسه في الشمره متذليلة امام فخذيه معلقة من وسط ظهره ..
من بصراح نادى مضبب وضحى منذر بشمس حارقة وقيالة يذيل
فيها كل الاخضر وعصر تردد فيه افنيه تبتعمت الحيل الفاتر ،
لكنه الحسد حى دافع صاد ابدا .. داخل الطياب الباht ضاعت
ورووده الحمراء في غيطان الفلاحين الكفرة من طلعة الشمس لفطستها
داخل القميص البصلى واللباس دم الفزال والتكه صوف شبكتها
عاشق قديم ..
ايش معنى يابخت .

من دون اليخوت .. ليخت انها لاتعيش لحظة حزن او لحظة فرح ،
تعيش لحظة نقص ، ليس نقص شيء بذاته ، الماء في البلاص ،
الطيبخ في الحلة ، ارغفة العيش قد لا تملأ المائنة لكن فيها ما يكفى

للعشاء وللقطور وقد يتبقى رغيفان ، تلتهمما مع فحل يصل في قطعة قماش من قميص قديم ، تحملها على رأسها ، وعلى راس خط القطن الذى ستجمعه .. تبحث عن مكان متواه مترى ، تنبش بيدها ، بحرص شديد تضع قطعة القماش بداخليها .. وجبة الفداء ، ثم تهيل أترب ، تساويه بباقي الأرض ، تتفرغ هى .. تعطى صاحب الأرض مقابل اجرتها ، وفي اوان الفداء تخطف رجلها او تصف لعيل من عيال صاحب الأرض النقطة التى يتوارى فيها اكلها .. نادرا ما يهتمى كلب صاحب الأرض الى مكان الرغيفين ، ورغم أنه لا يأكل العيش الا انه سيفتها بمخالبه ، وفي هذه الحالة ، تشتت الكلب وربما صاحبه ، واذ يجلس الانفار الجموعة فى ظل كيس القطن المتتصب فى القناة لتناول غدائهم ، تفشل كل المحاولات التى يبذلها صاحب الأرض وزوجته والانفار الشفيلة فى حمل نظيرة على ان تملأ حنكها بالقطتين مع اي منهم ، اليمان المؤكدة بحياة سيدى ذى الثون ترتفع الى سماء زرقاء صافية تمتد بلا نهاية حتى تلاقي الارض لا يشوبها قيم واحد ، نظيرة شبعانة ، نظيرة بطنها لاتسع كسرة خبز واحدة ، ليس لها نفس ..

— ياه ، ياما عينكو تقصد عينيها هي ، شافت الحالة مستوره والحمد لله ..

قصها لا يقع عليه بصر ، نقص يختطفى مطالبها الجاهزة ، نقص يستشرف دنيا غامضة ، دنيا بحالها غير التى تحياتها ، دنيا ما رأها وها سمعت عنها ولعلها — اذا سمعت اليها ذات يوم — تنكرها ولعلها — دون ان تدرى او تحسن او تعرف — تواصل بالكلمات .. بعد امها جدتتها البعيدة ، البحث عنها ..

هو فين ياناس

سوق البغوث

اشترى لى بخت

وطشت التوم المحرق فى حلة الرجلة ، اعادت احكام غطاء الحلة ، تهيات لانزال الطبيخة من فوق القانون ..

— س الخير يانظيرة

لم ترد .. استعادت بالله من الشيطان الرجيم ، فى باطنها ان الرجيم صفة ود مشاكس ، ككوز اللرة فى ارض الفلاح يتامله جائع لم يحس امره بعد ، زايلتها لفورها لحظة الوجد النشوان الاسيان

البعيد الأغوار ، السؤال الذي لم يتشكل أبدا ، البحث المهمائم
المطوف دون دراية او حس او معرفة عما لا تعرفه بذاته .. عما تطلب
ومالا تطلب بذاته .. ركبتها ربع لا تدوي ماتها .. في وعيها أن
المخربة بحيطاتها العالية ، ببقايا السور الذي حولها ، ليست من
البلد ، احست بعزلة المخربة بدت غير مرتاحة ، أتجهت الى ان
تتخلص من الموقف الطاريء المرهق ، لا لشيء اكثرا من ذلك ..

— لا خير ولا يحزنون ..
الولد شحاته ، بهت ..

— ان شاء الله ماسرحتي ، لا انت ولا اهلك ، مرة جاموسه ، بنت
ستين كلب ، لو كان جوزك راجل كان رياضي ، لكن كروديا .. كلمات
الشتيمة جادة صريحة ، لا غمز فيها ولا تحويه ، شتيمة صادقة ،
شتيمة مقصود بها الشتيمة لذاتها .. احست بالخبو ، بقرار
المريجحة ، جر الشتيمة مامون محدد في قبضة يدها ، كالفلته في
حقل القمح ..

— ماجاموسه الا امك واخواتك ، خدام ابن خدام ابن ستين كلب ،
وما كروديا الا انت ، جوزي جزمنته برقبتك ورقبة اسيادك اللي
يشتغل عندهم ..

.. ثم ضحكت الى ان انفج ما بين شفتتها وياتت اسنانها ، عامل
راجل زى الرجاله ، وهزت رأسها ، رجاله آخر زمن ..

— أعوذ بالله .. لسانك متبرى منك ..

.. كانت قد انتهت تماما ، انتظم خفق قلبها ، ساحت نفسها
عميقا ، عقلها الان في راسها ، تملأ نفسها ، في جيب شحاته ، أجرة
يوم لجمع القطن في غيط عيلة السوالم ، حسبت بسرعة ، لو تقضي
أجرة خمسة ستة ايام مقدما ، تشتري كيلة درة ، ابتسمت وهي
تنهد ..

— انت ياراد يامشطوب لاسم بتطلع من تحت الارض ، لابس طاقية
الاخفا ؟

بدأت تتأمل تفاصيل وجهه ، وفقت عند القصة والطاقية الصوف
الحمراء الواقفة على مؤخرة راسه ، الشارب المبروم ، العصا الخيزران
الرفيعة ، دليل الفتوة ..

— عامل راجل زى الرجاله ..
ثم ضحكت .. كانت قد هضمت اللحظة ، ضربته على صدره ..

— شنب وعصاية وعاوج الطاقية ، فاكر الفنية ، انا خدت الواد ،
ده غيه ، على عارجة الطاقية ، داتها وكسه ..
شحاته لم يفك مسارات التغيير في حس ونكر المرأة التي يقف
امامها ، بمزاج من حسنه ونكره ، جدعته وفهلوته ، التقط ان شيئاً
كان موجوداً ساعة ان باقت نظيرة ، ثم ، طار ، ودون ان يقصد
سوى ان يتحدث ، يتحدث ليفكر ..
— بت يانظيرة ، قفين توفيق ..

السؤال برىء ، او بدا لنظيرة انه محابي ولا يقصد به الا ذاته ،
كانت قد رحلت عن .. لا خير ولا يحزنون ، لعلها احست خيبة امل
في انها قاومت وهمها ، او قاومت ، ولعلها ستنكر ، وستحلف بسیدها
ذى النون ، قارمت نفسها ، اقرب الى حالة القبور همدانة ، تجري
بدهنها حسية ثمن كيلة الدرة ومنن ستشربها .. هل سيمهلها
يومين او ثلاثة اذا نقص الشمن بريزة او خمسة صاغ ، ولاد الفلاحين
يستاهلم ناظر الوقف يكسر وقبتهم ، بس احنا يارب اللي نعيش طول
عمرنا نشتري كيلة بكيلة ، وما يكملش ثمنها ابداً ، ياختهم اللي مخزنين
الدرة فوق سطوحهم ، وسالت ، بذلة وانكسار وشى بهما رنة صوت
كلماتها ولحظة التجدد كالدمعة — التي هي على ملامح وجهها ..

— يا واد يا شحاته ، قوله ، كيلة الدرة بكم الابايم دى ..
كحلم بعيد لمع في مخيلته ، وشاد افندى بركله بطرف حذائه الاحمر
الاجلسيه ، امه تخدم في بيت عائلة السوالم قبل ان يولد شحاته
نفسه ، اتولد اقاها تخدم في بيت عيلة السوالم ..

— ايه الله ، معاكي ده يابت يابهانة ..

— ابداً ياستي ، والنبي ، مأخذت حاجة ..

امتدت يد بيضاء بضة تشد فنلة قديمة من لباس بهانة .. يد
ثقبة او قمعت بهانة على بلاط الصالة ، بلاطة بيضاء وبلاطة سوداء ،
ووقدت ام شحاته فوق البلاط في المكان الذي يقع بين حجرة النوم
وحجرة السفرة في بيت عائلة السوالم ، لصة لا ينمر فيها المعروف ،
بصقة ووقدت على انفها ، عصا رشاد افندى تعمل على قفا بهانة ،
نطق شحاته ، امه ليست لصة ، شحاته فعل ذلك ، بوز الحزيمة
الحمراء الاجلسيه استقر بين بيته في خبطة شديدة بهنت على اثر عا ..
— وبسببها لعنة الحداء ، الخزانة تحولت الى اكتافه ، لص كامه ،
عوى من لسع الخبطات ، انسحب شحاته الى زريبة البهائم ، بهائم

رشاد افندى ، مختلفاً أمه وراءه متکورة ، من بين ثقفيها ينسى
خبط دم احمر ، كومة خيش قديم ثئن ، تستعطف ، تقسم ، ترقم
يديها بالضراوة الى ست البيت التي تقف متتصبة مفظبة ..
ـ معلوشن ياستى ، المسامح كريم ، عمرنا خدامينكم ..
شحاته ينحى بالقهر صورة امه ، ينحى معها بالحيرة صوت
نظيره ..

ـ واد يا شحاته ، كيلة الدرة بكام ..
كانت قد انطبعت في حسه صورة نظيرة متحفزة لا يدرى لم ،
شراينه ، لا يدرى لم ، مخنوقة ، لا يدرى لم .. ساعة ان دخل
عليها ..

ـ لا خير ولا يحزنون ..

ـ عاد شحاته يسأل دون ان يجيب متباها لا السؤال الذي وجهته
نظيرة اليه عن ثمن كيلة الدرة ، بصوت اقرب الى الهمس ..
ـ بقول لك ، توفيق فين ياست ..

حسبة ثمن كيلة الدرة ومنن ستشتريها ، وهل سيمهلها يوما او
يومين ، لازمال تدور في دماغ نظيرة .. وهي تعرف ثمن كيلة الدرة
تحديدا ، في طريقها - كل صباح الى الفيظ ، وفي عودتها - كل
مغرب - من الفيظ .. وسواء ستشتري ام ان الصفيحة ملائنة
بالدقيق .. نسأل عن ثمن كيلة الدرة .. وتكمل في داخلها .. هل
يرضى ابن سنتين كلب هذا ان يعطيها مقدمها ، ثمن كيلة الدرة كاملا
على ان توفيقها سروحا معه في ارض عيلة السوالم ..

ـ وحياة سيدنا النبي ، وحياة سيدى ذى النون ، يا شحاته ،
هم .. اسرح معاك لغاية ما اخلص ثمن كيلة الدرة ، انت عارف انى
جد ، كلمتني واحدة ، اقول .. لك هاسرح معاك لغاية ما عيلة
السوالم تخلص جمع ..
ـ نظيرة ، بلي ورقني ..

ـ انسلت الى حجرة المعاش امسكت كوز الصفيح ، ورفعت سداده
البلاص ، حزمة حبى البحر ، امالت البلاص ، سنداته بركتها ،
ملأته الكوز ، كان شحاته وراءها ، مدت يدها اليه بالكوز ..
ـ ابقوا اشرعوا في دوركم ..

ـ امسك شحاته بکوز الماء ، لم يرفعه الى فمه ، ردد مبتسما جادا
حزينا متوصلا في همس ..

— بقولك ، يانظيره ، بللى وبقى ..

.. اخيرا التقطت نظيرة كلمات شحاته ، شحاته يقذف رغيف العجين داخل فرن خمدة — نيرانه ، ومافي جوفه غير الرماد ، انتسمت .. ضربته على كتفه ..
— ياشيخ احنافى ايه والا فى ايه ..

مع أنها ثنت وابتسمت ونعمت الكلام وضربته على كتفه بالفة ، لكنها لم تعد الصوت الاول ، مد يده إليها بالكوز ، وهى تأخذه قبض على معصمها ، اطلقت آهة الم من خشونة اليد ، المسالة كلها محصورة داخل دماغ نظيرة ، تدبرها بحسابات ثمن كيلة الدرة ، ومدى قبول شحاته ان يعطيها مقدما ..

— سبب ايدى ياوااد ياشحاته يابن بهانة ..

.. فى عجلة ، اخرج شحاته — مقاول الانفار بعيلة السوالم — اجرة جمعة كاملة ، وضعها على قالب طوب احمر منزوع من جدران سراية عيلة الناظر ، فى العتمة ورصدت عيناهما الفلوس ، تنقل بصرها بين الفلوس على قالب طوب سراية توفيق سليل عيلة الناظر ، وبين وجه شحاته بالسهموم الذى حط عليه .. الشفقة تأخذها من اجل شحاته ، قالب الطوب فى استطالة وجه توفيق ، اذناها تلتقط ..
— اجرتك سبعة ايام ، ثمن كيلة الدرة ، ووهبة الطحان ..
.. يمد يده ، نظيرة تستعد لنزال بدنى الا تخشاه ، انتهت لحظة الاذل الريعية ، اللحظة التى احست فيها نظيرة بعزلتها مع شحاته ..

.. لحظتها كان شحاته مجرد مقاول انفار لجمع القطن فى غيط عيلة السوالم ...

روايات الهلال تقدم

المفردون

تأليف

وول سوينكا

الفائز بجائزة نوبل في الأدب لعام 1986

ترجمة

محمد عباس جلال

تصدر : ١٥ يناير ١٩٨٧

رقم الايداع : ٨٦ / ٧٤٤٢
الترقيم الدولى : ٢ - ٢٧٢ - ١١٨ - ٩٧٧
ISBN

اشتراك
في
روايات
الهلال

الكويت: السيد عبد العال بسيونى زغلول
الصفاة - ص ب رقم ٢١٨٣٣
٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية

Ubqariah al-Rif .. hi Ubqariah abda' Mu'mad Romi'sh
Hada ho abسط المداخل .. lehdeh al-ro'aya
Romi'sh ibn al-arsh .. wadi'mha wa-ran'atnya
Au kama qala 'anhu al-astاذ yahy'i haqqi :
.. min qasas Romi'sh a'sm Rana'ha Tarrab al-qariyah .. waray
Ahlala ahya' wa 'ala al-mas'ou al-insani la al-muhli f-hisib ..
Waqd bikiت fi dzheni min qasashe surah ar-ras'ha qro'iyah ln
Ahlala .. Hada ho al-am'tan al-kabir li-katib .. an tadb fi
Shaxsiyatih nibs' al-haya' wasma' al-tash'hish wal-anqafad bihi't اذا
Zekr al-katib zekrt 'ala al-fawr asma' hizh shaxsiyati .. اذا
Qalt mithla 'Attil .. ou hamilt qalt 'ala al-fawr Shaksibir .. wa-l-ukus
"صحيح"